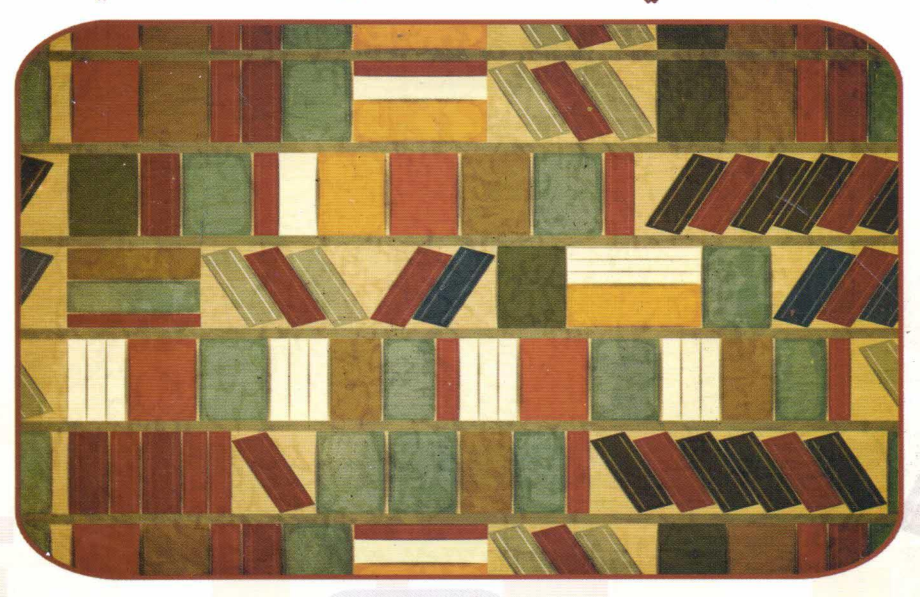


محمد الجوادي

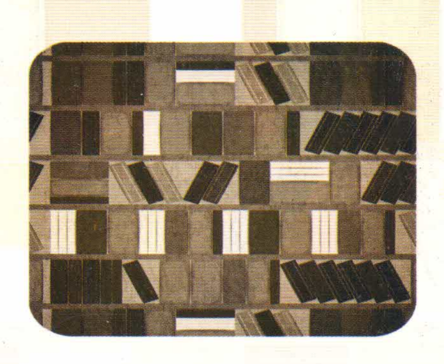
دهاليز الناصرية

مذكرات

اكرم الحوراني ، منصور فايز ، صلاح الشاهد ، الصاوي حبيب







نتدارس في هذا الكتاب أربعة من كتب المذكرات التي عاش أصحابها بالقرب من دهاليز الناصرية ، و اجتازوا تجاربها وأجواءها وأهواءها وأنواءها ، وكانت لهم صفاتهم البارزة في هذه الدهاليز: فأولهم نائب الرئيس ، وثانيهم هو أستاذ الطب الذي يعني به ، وثالثهم هو كبير الأمناء ، ورابعهم هو طبيبه الخاص في سنواته الثلاثة الأخيرة. وعلى حين يأخذ الأول مسلك انتقاد الرئيس فإن الثلاثة الآخرين يقفون في صفه تماما .



في دهاليز الناصرية

الطبعة الأولى ١٤٣٥هـ-٢٠١٤م

بطاقة الفهرسة

الجوادي ، محمد

في دهاليز الناصرية ، د/ محمد الجوادي. ط١. المنصورة : دار الكلمة للنشر والتوزيع ، ٢٠١٤م

١٩٢ص ، ٢٤ سم

رقم الإيداع : ١٣٠٩٠/ ٢٠١٤م

تدمك : ٩٧٨-٩٧٧-٣١١-٤٤٢-٨

دار الكلمة للنشر والتوزيع مصر - القاهرة
القاهرة . محمول : ٠١٠٩٧٠٧٤٩٥

E-mail:mmaggour@hotmail.com
E-mail:daralkalema_pdp@hotmail.com
www.facebook.com/DarAlkalema

د. محمد الجوادي

في دهاليز الناصرية

مذكرات

أكرم الحوراني ، ومنصور فايز ، وصلاح الشاهد ، الصاوي حبيب

دار الكلمة
للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم



إهداء

إلى العالم الجليل

الأستاذ الدكتور شريف الطوجي

هذا الكتاب

نتدارس في هذا الكتاب أربعة من كتب المذكرات التي عاش أصحابها بالقرب من دهاليز الناصرية ، و اجتازوا تجاربها وأجواءها وأهواءها وأنواءها ، وكانت لهم صفاتهم البارزة في هذه الدهاليز: فأولهم نائب الرئيس ، وثانيهم هو أستاذ الطب الذي يعني به ، وثالثهم هو كبير الأمناء ، ورابعهم هو طبيبه الخاص في سنواته الثلاثة الأخيرة. وعلى حين يأخذ الأول مسلك انتقاد الرئيس فإن الثلاثة الآخرين يقفون في صفه تماما .

في الباب الأول من هذا الكتاب نتدارس مذكرات أكرم الحوراني نائب الرئيس جمال عبد الناصر في دولة الوحدة، وهو واحد من أهم ثلاثة أسماء سورية في دولة الوحدة المصرية السورية ، وإن كان هو نفسه لم يستمر في دولة الوحدة إلا إلى ١٩٥٩ وعجز عن الاستمرار مع جمال عبد الناصر بكل ما يمثله من أداء سياسي وإداري كان يستحيل القبول به على من مارس السياسة الحزبية والشعبية من قبل.

تولى الحوراني وزارة الزراعة في الأربعينيات ، وأحدث فيها تغييرات هيكلية ضخمة . و تولى وزارة الدفاع في حكومة خالد العظم. وكانت سياسته فيها صريحة في السيطرة على الجيش، وربط العلاقات الشخصية، لتوظيفها في مشروعه السياسي، وقد استفاد من البعثات التي وزعها على أصدقائه في توكيد هذه العلاقات ، وكان له دور بارز في البناء المبكر لجهاز مخابرات الجيش لإحكام السيطرة عليه ، ولست أبالغ إذا قلت : إن الحوراني هو أكثر المدنيين السوريين تأثيرا في الجيش السوري.

أسس الحوراني في سبتمبر ١٩٥٠م الحزب العربي الاشتراكي وجعل مدينة حماة

مقره الرئيسي. ثم اتفق مع مؤسسي البعث: ميشيل عفلق وصلاح البيطار عام ١٩٥٢ على دمج حزبي « البعث العربي» و«العربي الاشتراكي » وتكوين « حزب البعث العربي الاشتراكي ».

عندما أعلنت الوحدة بين مصر وسوريا في فبراير عام ١٩٥٨م، تحمس لها الحوراني ، وأصبح بمثابة الشخصية السورية الأولى في دولة الوحدة بعد اعتزال الرئيس شكري القوتلي السياسة ، و عين في دولة الوحدة نائباً لرئيس الجمهورية ، لكن خلافاته مع عبد الناصر سرعان ما اندلعت بسرعة ، وجعلته يجاهر بانتقاده واستقال من مسؤولياته الرسمية في ١٩٥٩م ، وانتقل إلى لبنان واستمر يشنّ الهجوم تلو الهجوم على ما سمّاه بالاستعمار المصري والتواطؤ بين القاهرة وتل أبيب ، وما كاد انقلاب ٢٨ من سبتمبر عام ١٩٦١م ينهي حكم عبد الناصر في سوريا حتى سارع الحوراني بالعودة إلى دمشق ، حيث أصبح في نظر عبد الناصر من أركان «العهد الانفصالي» هو ورفاقه.

وبعد انقلاب ٨ من مارس عام ١٩٦٣م الذي جاء بالبعث إلى السلطة لقي الحوراني سوء المعاملة من تلامذته القدامي الذين سبق له أن اقتحم بهم عوالم الحزبية والسياسة ، ولم يكن حظه في الانقلابات التالية بأفضل من حظه مع انقلاب مارس ١٩٦٣م.

عاش الحوراني متنقلا من بيروت إلى بغداد، ومن بغداد إلى باريس، ومنها إلى عمّان، عاصمة الأردن حيث توفي في عمان في فبراير عام ١٩٩٦م ودفن فيها. و لم يشارك في جنازته إلا عدد قليل كان أغلبهم (من أعدائه) من الإخوان المسلمين .

ولما نشرت مذكراته بعد وفاته ، في أربعة مجلدات في ٢٠٠٠ م أثارت كثيرا من الاهتمام والتصحيح والشرح والفهم والجدل والمقارنة والتعمق والاستكشاف والتوضيح ، ولم يكن هذا بالغريب فهي مذكرات ثرية بكل هذه المعاني وأكثر .

وفي كتابنا هذا نتناول قضية واحدة من قضايا مذكرات الحوراني المتعددة ، وهي صورة عبد الناصر في هذه المذكرات ، ونتناول هذه القضية ، بطريقة لم نستخدمها من قبل وهي طريقة الاقتصار على التعليق في العناوين الفرعية التي نعرض من خلالها المذكرات مع ترتيب الجزئيات التسعة والستين التي انتقيناها من مذكرات الحوراني تحت ثمانية عناوين شبه رئيسية تحاول أن تنتظم هذه الأفكار الموزعة ما بين رأي استقّر ، أو آخر تطور، أو ثالث تغير ، وفي كل الأحوال فإننا أمام مادة دسمة ، وفكر نافذ ، ورأي قويم ، وعرض ممتع ، ومثقف حقيقي ، وكاتب متمكن ، وسياسي طموح ، و وطني مخلص .. ومجتهد يصيب ، ويخطئ .

ونتناول في الباب الثاني ، من كتابنا هذا ، كتاب مذكرات الدكتور منصور فايز وهو في رأيي كتاب وفاء في الدرجة الأولى، ذلك أن صاحبه ينحاز بإرادته الحرة إلى عبد الناصر في مواجهة كل خصومه، بل في مواجهة كل مَنْ حسبوا على عبد الناصر، واستكثر جمهور المثقفين أن يحسبوا عليه ، وعلى نحو ما نجد في هذا الكتاب انحياز منصور فايز إلى عبد الناصر في مواجهة عبد الحكيم عامر ومؤيديه، فإننا نجد انحيازا من نوع آخر يتعالى بعبد الناصر على تصرفات الاتحاد الاشتراكي، وينسب إلى عبد الناصر نفسه سخرية لاذعة من هذه التصرفات. ومع ما يحفل به الكتاب من عفة اللفظ، وأدب الكلمة، ومظاهر التهذيب والرقي الواضحة في العبارات، والجمل والفقرات، فإن منصور فايز لا يزال لا يرى عبد الناصر إلا مصيبا، ولا يرى غيره إلا مخطئا، وهو يروي تاريخ ما عرفه من حياة عبد الناصر في إطار الحديث عن صواب مطلق، وخير مطلق، وجمال مطلق، وكفاح مطلق، حتى ليكاد كتاب منصور فايز يخرج من نطاق المذكرات إلى نطاق المدائح، وهو يخرج من نطاق ما يرويه طبيب صاحب مذكرات إلى نطاق ما يرويه كاتب صاحب قلم ودفاع ورؤية. والحق أن منصور فايز لم يهدف إلا هذا حين ألف كتابه، لكنه وجد نفسه

مضطرا إلى أن يسلك هذا الطريق في وسط معمعة من الانتقادات والروايات والاكتشافات والتفسيرات والتأويلات التي أحاطت بمواقف عبد الناصر فأحالتها إلى صورة أقرب إلى السواد المطلق منها إلى السواد النسبي، لهذا فإن مدائح كتاب منصور فايز (ولا نقول مدائح منصور فايز) تبدو في إطار المدائح الاعتذارية أكثر مما تبدو في إطار المدائح المعتادة.

ونتدارس أيضا في كتاب منصور فايز بعض ما انفرد صاحبه بروايته مما شهده وشاهده، ومما استشهد به على صواب ما رآه، أو دافع به عن رأيه. وقد كان الدكتور منصور فايز طبيبا للرئيس عبد الناصر في السنوات السبع الأخيرة من عمره ، وقد جمع مع الطب مجدي الأستاذية والفكر باقتدار ، ثم واتاه الحظ أن يعيش سنوات طويلة بعد عبد الناصر لا أن يموت قبله على نحو ما حدث مع سلفه الأشهر الدكتور أنور المفتي عليهم جميعا رحمة الله .

ونتناول في الباب الثالث ، من كتابنا هذا ،أهم ما قدمه صلاح الشاهد من مذكراته بجزءيها من ذكرياته عن عمله مع قادة الدولة في عهد الثورة، وكنا قد تدارسنا في كتابنا «في كواليس الملكية» ما شملته مذكرات صلاح الشاهد من حديث عما قبل ٢٣ من يوليو ١٩٥٢م ونحن نعرف أنه استمرّ في عمله في رئاسة الوزارة حين تولي اللواء محمد نجيب رياسة الوزراء، وأنه بقيّ في هذا الموقع حين أصبح الرئيس جمال عبد الناصر رئيسا للوزراء، واعتذر عن عدم الانتقال مع محمد نجيب إلى رئاسة الجمهورية ، واستمر عمل صلاح الشاهد مع الرئيس عبد الناصر الذي سرعان ما أصبح رئيسا للجمهورية بعد عامين من رئاسته للوزراء.

وقد كان صلاح الشاهد واحدا من الذين تعاونوا مع حكومات الثورة على نحو ما تعاملوا مع حكومات نهاية عهد الملكية ، وليس المقصود من مثل هذه العبارة أنه كان كفاءة نادرة لا بد من التعاون معها، وليس المقصود أيضا أنه كان من ذلك

النوع من البشر الذين يعيشون بلا لون ولا طعم ولا رائحة بحيث يسهل عليه التعاون مع هؤلاء وأولئك، ولكن المقصود في واقع الأمر شيئا غير هذا وذاك، وإن كان بين هذا وذاك، فقد كان صلاح الشاهد من رجال المراسم أو باللفظ الأشهر كان تشريفاتيا، وكما كان من الواجب عليه أن يتواءم مع مهنته، بصرف النظر عن الرؤساء، فقد كان من السهل عليه أن يتواءم مع مهنته بصرف النظر عنهم، ومع هذا وبحكم عوامل كثيرة نعرفها مما ننقله عنه فقد استطاع صلاح الشاهد أن يحقق النجاح والاستمرار في مهنته، وأن يستحوذ على الثقة والتقدير من رؤسائه الآخرين الذين هم في الوقت نفسه رؤساء مصر، وقد عمل الشاهد أمينا مع النحاس باشا وسري باشا وعلي ماهر باشا وأحمد نجيب الهلالي باشا و الرؤساء الثلاثة محمد نجيب وجمال عبد الناصر وأنور السادات، فنال ثقتهم وتقديرهم وامتنانهم، كما كان قادرا على أن يؤثر فيهم وفي قراراتهم بالحجم الذي يمكن لرجل المراسم أو لكبير رجال المراسم أن يؤثر به في قرارات هؤلاء الكبار.

أما الباب الرابع ، من كتابنا هذا ، فنتدارس فيه مذكرات الدكتور الصاوي حبيب وقد وصفتها بأنها مذكرات خفيفة الطابع، كتبها طبيب قدر له أن يكون طبيبا خاصا لرئيس الجمهورية ما بين ١٩٦٧م و١٩٧٠م ، لكنه آثر في عنوان كتابه أن يختصر حياته كلها في هذه السنوات، فجعل هذا الوصف بديلاً مساوياً لاسمه، مع أنه كان في وسعه أن يضعه في جملة من قبيل «كنت طبيباً لعبد الناصر»، أو «عملت طبيباً لعبد الناصر»، لكنه آثر أن يفعل بنفسه هذا الذي فعله، ولست أدري مَنْ الذي حسّن له هذا الرأي أو المشورة، لكنني أعرف بكل تأكيد أن هذه الصفة لم تكن لتضيع من صاحب هذه المذكرات لو أنها أغفلت من العنوان أو لو أنها نشرت تحت أي اسم آخر بعيد عن هذه الصفة، حتى لو كان هذا العنوان عاما جدا. وعلى كل الأحوال فإن الاعتزاز بعبد الناصر خلق جميل، كذلك فإن الاعتزاز

بالعمل إلى جواره خلق جميل أيضاً، واختصار الحياة في السنوات التي عاشها الإنسان بالقرب منه شيء جميل أيضاً، وربما كان هذا كله أجمل من هذه المذكرات التي لا تخلو من جمال ؛ لأنها عبرت عن كثير من المعاني التي امتلك صاحب المذكرات الشجاعة لأن يعبر عنها .

وكلي أمل أن يسهم هذا العمل المتواضع في فتح الأعين على تاريخنا الراهن الذي نعيشه وعلى صنعنا للتاريخ على حد سواء.

وكلى أمل أيضا أن يسهم هذا الكتاب أيضا في تنمية وعينا بمشكاتنا وحاضرنا واقتصادنا وتنميتنا وهياكلنا وعيوبنا و أخطائنا وآمالنا وأحلامنا وتطلعاتنا.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يجعل عملي هذا خالصا لوجهه، وإن كنت أعلم عن نفسي أنى لا أخلو من الرياء فى كل ما أفعل .

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يهدينى سواءالسبيل، وأن يرزقنى العفاف والغنى، والبر والتقى، والفضل والهدى، والسعد والرضا، وأن ينعم علىّ بروح طالب العلم، وقلب الطفل الكبير، وإيمان العجائز، ويقين الموحدين، وشكّ الأطباء، وتساؤلات الباحثين .

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يمتعني بسمعي وبصري وقوتي ما حييت، وأن يحفظ عليّ عقلي وذاكرتي، وأن يجعل كل ذلك الوارث منى .

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يذهب عنى ما أشكو من ألم وتعب ووصب وقلق، وأن يحسن ختامي ، وأن يجعل خير عمري آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم ألقاه .

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يعينني على نفسي وأن يكفيني شرها، وشر الناس، وأن يوفقني لأن أتم ما بدأت، وأن ينفعني بما علمني، وأن يعلمني ما ينفعني ، وأن

يمكنني من القيام بحق شكره وحمده وعبادته فهو وحده الذي منحني العقل، والمعرفة، والمنطق، والفكر، والذاكرة، والصحة، والوقت، والقدرة، والجهد، والمال، والقبول وهو جلّ جلاله الذي هداني، ووفقني، وأكرمني، ونعمني، وحبب فيّ خلقَه، وهو وحده القادر على أن يتجاوز عن سيئاتي وهي - بالطبع وبالتأكيد - كثيرة ومتواترة ومتنامية ، فله سبحانه وتعالى - وحده - الحمد، والشكر، والثناء الحسن الجميل

د. محمد الجوادي

الباب الأول

صورة الرئيس عبد الناصر في مذكرات أكرم الحوراني

١

أكرم الحوراني واحد من أهم ثلاثة أسماء سورية في دولة الوحدة المصرية السورية التي استمرت ـ ما بين فبراير ١٩٥٨م وسبتمبر ١٩٦١م ، وإن كان هو نفسه لم يستمر في دولة الوحدة إلا إلى ١٩٥٩م وعجز عن الاستمرار مع جمال عبد الناصر بكل ما يمثله من أداء سياسي وإداري كان يستحيل القبول به على من مارس السياسة الحزبية والشعبية من قبل . أما الاسمان الآخران فهما رفيقه صلاح بيطار وخصمهما الذي هو عبد الحميد السراج . ومن العجيب أن ثلاثتهم اختلفوا مع عبد الناصر في مراحل متتالية على نحو ما اختلف معه أيضا الزعيم المؤسس لحزب البعث الأستاذ ميشيل عفلق .

اسمه بالكامل : أكرم رشيد محيي الدين الحوراني ، ولد في مدينة حماة السورية الشهيرة عام ١٩١١ وتلقى تعليمه الأولي في مدرسة دار العلم والتربية ، وهي مدرسة نموذجية أسسها الملك السوري (والعراقي فيما بعد) فيصل الأول بن الشريف حسين بن على ، واتخذ لها موقعا قرب قصر العظم في حماة. وقد تأثر أكرم الحوراني بأستاذه عثمان الحوراني الذي كان يدرس مادة التاريخ، إذ كان يغذي في طلابه روح الحرية والاستقلال والمقاومة المسلحة والفخر بالعروبة، وكان هذا الأستاذ من المشاركين في ثورة ١٩٢٥، وهكذا عاش أكرم الحوراني ،عن قرب وعن إيمان، أجواء الثورة والصراع السياسي الذي فجرته ثورة سورية (١٩٢٥م - ١٩٢٧م).

***

٢

بعد أن أنهى الحوراني سنوات الدراسة في معهد العلم والتربية في حماة، انتقل إلى دمشق ودرس في مدرسة النخبة الثانوية التابعة للحكومة ، وفيها تخرج الحوراني وكان من الأوائل، ثم التحق بالجامعة اليسوعية في بيروت لدراسة الطب، لكنه عاد بعد سنة إلى دمشق (١٩٣١م) حيث التحق بجامعتها لدراسة الحقوق، وكان سبب تركه لبيروت هو اشتراكه في التخطيط لاغتيال النائب صبحي بركات. وبعد تخرجه في كلية الحقوق عمل الحوراني في المحاماة إلى أن انتخب عام ١٩٤٣م نائباً في البرلمان.

كان أول إسهام منظم للحوراني في العمل السياسي في عام ١٩٣٦م بعد تخرجه من كلية الحقوق، حيث انضم إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي منجذباً إلى روحه العصرية أو المتعصرنة وبقي في هذا الحزب كعضو ناشط واعد ، لكنه سرعان ما فصل منه سنة ١٩٣٩م.

***



٣

في عام ١٩٤١م، سارع الحوراني وبعض ضباط الجيش السوري ومتطوعون سياسيون آخرون إلى بغداد لمؤازرة ثورة رشيد عالي الكيلاني ضد البريطانيين، وبعد أن تمكن البريطانيون من قمع الثورة، أعيد هؤلاء الوطنيون من العراق إلى سورية ، وتم احتجازهم من قبل حكومة الانتداب الفرنسي في دير الزور على الحدود السورية العراقية.

بعد عامين خطا الحوراني خطوة أوسع فقاد انتفاضة الفلاحين في ريف حماة ضد

الإقطاعيين، وساعد هذا على لمعان اسمه فانتخب نائباً عن حماة سنة ١٩٤٣م ، وقد تكرر انتخابه فيما بعد في ١٩٤٧م ، ١٩٤٩م ، وفي تلك الفترة ساهم أيضا في التحريض غلى الوجود الفرنسي في مدينة حماة عام ١٩٤٥م.

***

٤

ومنذ انتخابه للبرلمان عام ١٩٤٣م ، تنامت صلاته ببعض الضباط الشبان الذي تخرجوا من الكلية العسكرية في حمص ومنهم عدنان المالكي وأديب الشيشكلي. وكان الحوراني ورفاقه المثقفون الذين انجذبوا للسياسة من أمثال ميشيل عفلق وصلاح البيطار ينظرون إلى الجيش دائماً كوسيلة للوصول إلى الحكم، لا كمؤسسة لحماية البلاد من العدو ، وهي النظرة التي رحبت بها السلطات والمخابرات في الولايات المتحدة الأمريكية ودعمتها بإسهامها المتكرر في حماية الانقلابات العسكرية من مشروعية و غضب وقوة الثورات الشعبية ، وأتمت هذا الصراع في دهاء وخبث حتى إنها (أي الإدارة الأمريكية) لم تمانع أن تتلقي نقد وتجريح وهجوم قادة الانقلابات العسكرية عليها بينما هم يخدمونها ، ويفيدون مخططاتها على نحو أو آخر ، كما يؤمنون لها مصالحها البترولية واللوجستية ومصالح ركيزتها الإسرائيلية .

علي حين كان الحوراني هو ورفاقه من رواد البعث والاتجاهات القومية ،في البداية ، من أكثر السياسيين تحمسا لفكرة تسييس الجيش بعد الاستقلال ، فإنه راجع مواقفه من خلال ما روي من ذكريات معلمة ودالة ، ومن الإنصاف إذا أن نشير إلى أن الحوراني لم يمض للنهاية في فكرته المؤمنة بضرورة سيطرة الجيوش، وإنما بدأ يراجع توجهاته و سياسته تماما.

٥

وصلت مكانة الحوراني في السياسة السورية إلى الحد الذي قيل فيه : إنه كان للضباط السوريين في الأربعينات وبداية الخمسينات واحد من ثلاثة اختيارات :

الأول : تأييد الحزب السوري القومي .

والثاني : تأييد البعث.

والثالث : هو الولاء لقائد منفرد هو أكرم الحوراني الذي كان يبدو على الدوام أشد المطالبين بالوقوف إلى جانب حقوق الضباط والأفراد، وذلك على حين كان انتقاد السياسيين الآخرين لهذا الجيش يتزايد!

ومن الطريف أن الحوراني عرف بالموقف نفسه مع الفلاحين والعمال. وهكذا أصبح الحوراني نظيرا سوريا معاصرا لزعماء مصريين مستقلين غير حزبيين من أمثال علي ماهر باشا مع الفارق .

***

٦

تولى الحوراني وزارة الزراعة في الأربعينيات وأحدث فيها تغييرات هيكلية ضخمة ، وفي ديسمبر ١٩٤٩م تولى وزارة الدفاع في حكومة خالد العظم، ثم ما لبث أن استقال منها في شهر إبريل التالي ، وكانت سياسته في وزارة الدفاع صريحة في السيطرة على الجيش، وربط العلاقات الشخصية، لتوظيفها في مشروعه السياسي، وقد استفاد من البعثات التي وزعها على أصدقائه في توكيد هذه العلاقات. وكان له دور بارز في البناء المبكر لجهاز مخابرات الجيش لإحكام السيطرة

عليه. ولست أبالغ إذا قلت : إن الحوراني هو أكثر المدنيين السوريين تأثيرا في الجيش السوري.

وقف الحوراني عندما كان وزيراً للدفاع إلى جانب الشيوعيين في البرلمان السوري مما أضاف إلى رصيده في مواجهة القوة الصاعدة لجماعة الإخوان المسلمين وكان من أول من حاربهم باسم العلمانية والتحرر متهماً إياهم بالعمالة للاستعمار ، وهي التهمة الجاهزة التي استسهلها ، واستلهمها ، واستهلكها المصريون المناهضون للإخوان دون أي دليل . ولا يزالون .

***



أسس أكرم الحوراني في سبتمبر ١٩٥٠م الحزب العربي الاشتراكي وجعل مدينة حماة مقره الرئيسي.

ومن الطريف أنه أول من وظف كلمتي «العربي» و «الاشتراكي» في اسم حزب واحد قبل أن يقلبها عبد الناصر ويستخدمها في « الاتحاد الاشتراكي العربي» .

وظف الحوراني أتباعه من الفلاحين في الحزب العربي الاشتراكي، واستخدمهم ضد الملاك الكبار. وبلغت حملة التحريض أوجها في مؤتمر في حلب (أيلول ١٩٥١م) الذي حضره ألوف من الفلاحين، فكان أول مؤتمر من هذا النوع الثوري في الوطن العربي، واشتدت الحملة ونتجت عن هذا التحريض أعمال عنيفة، فأُحرقت المحاصيل وأُطلقت النيران على بيوت الملاك .

***

٨

ولما سيطر أديب الشيشكلي (قائد ثالث الانقلابات السورية و حليف الحوراني القديم)على الحكم وأخذ يكمم الأفواه ويُلقى القبض على معارضيه هرب الحوراني عبر الجبال إلى لبنان، وهناك انضم إليه ميشيل عفلق وصلاح البيطار اللذان هربا هما أيضاً من اضطهاد أديب الشيشكلي.

وفي منفاهم عام ١٩٥٢م قرر الثلاثة دمج حزبي «البعث العربي» و«العربي الاشتراكي» لتكوين « حزب البعث العربي الاشتراكي». وبذا تقوت الجبهة المعارضة للشيشكلي، وكان هذا الحزب المتحد بمثابة تجمع الموظفين والمعلمين وأشباههم مع الفلاحين.

***

٩

عندما أعلنت الوحدة بين مصر وسوريا في فبراير عام ١٩٥٨م ، تحمس لها الحوراني وأصبح بمثابة الشخصية السورية الأولى في دولة الوحدة بعد اعتزال الرئيس شكري القوتلي السياسة ، و عين في دولة الوحدة نائباً لرئيس الجمهورية العربية المتحدة جمال عبد الناصر، لكن خلافاته مع عبد الناصر حدثت بسرعة ، وجعلته يجاهر بانتقاد دولة الوحدة كما استقال من مسؤولياته الرسمية في ١٩٥٩م، وانتقل الحوراني إلى لبنان ، واستمر يشن الهجوم تلو الهجوم على ما سماه بالاستعمار المصري والتواطؤ بين القاهرة وتل أبيب.

***

١٠

وما كاد انقلاب ٢٨ من سبتمبر عام ١٩٦١م ينهي حكم عبد الناصر لسوريا حتى سارع الحوراني بالعودة إلى دمشق وسرعان ما أصبح في نظر عبد الناصر من أركان «العهد الانفصالي» هو ورفاقه.

وبقيام انقلاب ٨ من مارس عام ١٩٦٣م الذي جاء بالبعث إلى السلطة لقي الحوراني سوء المعاملة من تلامذته القدامى الذين سبق له أن اقتحم بهم عوالم الحزبية والسياسة ، لكنه وجدهم يخرجونه من السياسة ويجردونه من حقوقه المدنية كما أنه تعرض لاعتقال دام فترة وجيزة. ولم يكن حظه في الانقلابات التالية بأفضل من حظه مع انقلاب مارس ١٩٦٣م.

عاش الحوراني متنقلا من بيروت إلى بغداد، ومن بغداد إلى باريس، ومنها إلى عمّان، عاصمة الأردن حيث توفي في عمان في فبراير عام ١٩٩٦ ودفن فيها. و شارك في جنازته عدد قليل كان أغلبهم من أعدائه من الإخوان المسلمين .

***

١١

نشرت مكتبة مدبولي مذكرات أكرم الحوراني في القاهرة، في أربعة مجلدات كبيرة قيمة راقية الطباعة والإخراج والتجليد ،وقد صدرت الطبعة الأولى ٢٠٠٠م . وقد أثارت «مذكرات أكرم الحوراني» منذ نشرها كثيرا من الاهتمام والتصحيح والشرح والفهم والجدل والمقارنة والتعمق والاستكشاف والتوضيح ، ولم يكن هذا بالأمر الغريب فهي مذكرات ثرية بكل هذه المعاني وأكثر ، وقد أفدت منها في كثير جدا من كتبي ودراساتي التي أصدرتها بعد نشرها .

١٢

وفي هذا الباب نتناول كما أشرنا في المقدمة ،قضية واحدة من قضايا مذكرات الحوراني المتعددة ، ونتناول هذه القضية ، بطريقة لم نستخدمها من قبل وهي طريقة الاقتصار على التعليق في العناوين الفرعية التي نعرض من خلالها المذكرات مع ترتيب الجزئيات التسعة والستين التي انتقيناها من مذكرات الحوراني تحت ثمانية عناوين شبه رئيسية تحاول أن تنتظم هذه الأفكار الموزعة مابين رأي استقرّ ، أو آخر تطور، أو ثالث تغير .

وفي كل الأحوال فإننا أمام مادة دسمة ، وفكر نافد ، ورأي قويم ، وعرض ممتع ، ومثقف حقيقي ، وكاتب متمكن ، وسياسي طموح ، و وطني مخلص .. ومجتهد يصيب ، ويخطئ .

***

١٣

أولا : أسوا خلق سياسي التآمر على الحليف بتسليمه :

التضحية بأنصار عبد الناصر عند فشل ثورة الشواف بالعراق ١٩٥٩م تمثل أكبر إدانة لأخلاق النظام الناصري وعقليته :

«... وقبل أن يخبرنا عبد الناصر عن محطة الإذاعة التي كانت توجه من قرية (خرابو) في غوطة دمشق، بدلا من إذاعة الشواف في الموصل، أخبرني عنها نهاد الغادري الذي كان يعمل فيها مع بعض محرري الصحف في سوريا،والذي لفت نظري وأثار دهشتي واستغرابي هو ما نشرته صحف الجمهورية من صور للضابطين ناظم الطبقجلي ورفعت الحاج سري والنداءات التي كانت توجه إليهما

وإلى مجموعة من الضباط بأسمائهم الكاملة من محطة إذاعة الغوطة بعد إخفاق ثورة الشواف في الموصل، وكان الطبقجلي قائدا للفرقة الثامنة في كركوك، أما رفعت الحاج سري فكان رئيس مخابرات الجيش».

«لقد أثرت هذا الموضوع آنذاك في أحد الاجتماعات التي كان يعقدها جمال عبد الناصر كل ليلة في قصر الضيافة إلى ما بعد السحور، وكان يحضر هذه الاجتماعات عبد الحميد السراج، وطعمة العودة الله، ومصطفي حمدون، وزكريا محيي الدين، وعبد اللطيف البغدادي، ولم أكن أعلم آنذاك شيئا عن تفاصيل الاتصالات السابقة التي أجراها عبد المجيد فريد وعبد الحميد السراج مع كل من الشواف والطبقجلي والحاج سري، وعلاقتهما بهذه الثورة، قلت للسراج محتجا أمام عبد الناصر: «هل تقصد يا عبد الحميد بنداءاتك المتكررة من محطة خرابو للطبقجلي والحاج سري ورفاقهما أن تشي بهم لعبد الكريم قاسم ليلقي القبض عليهم، ويعدمهم مع رفاقهم من الضباط الآخرين؟ كيف يجوز لك ذلك؟».

«أجابني السراج بحقد: «إن هؤلاء يجب أن يعدموا، نعم إنني أقصد ذلك! إن الطبقجلي لم يزحف بفرقته لمساعدة الشواف في الموصل، وإن عبد الكريم قاسم كان في قبضة يدي، لأنني كنت على اتصال مع حرسه الخاص، فلماذا لم يتحرك الحاج سري في بغداد ؟».

***



انعدام الشعور بالمسؤولية:

«قلت للسراج: عجبا.. كيف يجوز لك أن تبدأ الثورة في الموصل طالما أن عبد الكريم قاسم في قبضة يدك في بغداد ؟ ألم يكن من البديهي أن يقضي على قاسم

بواسطة حرسه في بغداد وأن تبدأ الثورة فيها فتتبعها بعد ذلك الموصل وكركوك؟».

«كان عبد الناصر يستمع إلى هذا النقاش فلم يتدخل وظل صامتا».

«بقي لغزا بالنسبة لي السبب الذي جعل السراج يذيع النداءات بأسماء الضباط من إذاعة خرابو في الغوطة، وإصرار السراج أمام عبد الناصر بأنه يقصد من ذلك إعدامهم من قبل قاسم؛ لأنهم لم ينجدوا ثورة الشواف، بل شاركني في ذلك كثيرون وكان التأويل أنه ربما كان الطبقجلي والحاج سري ومجموعة من ذكرت أسماءهم من الضباط قريبين من حزب البعث، لذلك أجاز السراج لنفسه الوشاية بهم، ولكن الذي تبين أن هؤلاء الضباط كانوا ذوي اتجاه قومي عربي، وكانوا ناقمين على ما يرتكبه الحزب الشيوعي من هيمنة وتسلط وإجرام، وهذا ما تبدى أثناء محاكمتهم».

«أما تآمر السراج بمعرفة ناصر على ناظم الطبقجلي ورفعت الحاج سري ورفاقها وإذاعة أسمائهم من الإذاعة مما أدى إلى إعدامهم جميعا، فهو أمر لا يمكن تعليله إلا بانعدام الشعور بالمسؤولية».

***



١٥

ثانيا: غياب الرؤية السياسية لعبد الناصر أو اضطرابها:

عبد الناصر كان قد وصل إلى نقطة اللاعودة فيما يتعلق بالديمقراطية والدكتاتورية.

«إن الحقيقة التي لا ريب فيها أن جمال عبد الناصر، مهما كان جادًا ومخلصا في تحقيق الديمقراطية السياسية، بعد أن أعلن سقوط دولة المخابرات، فإنه كان عاجزا عن تحقيق ذلك، لأن الحاكم في أي نظام دكتاتوري يصبح أسير الأجهزة التي

أنشأها، وهكذا قبل جمال عبد الناصر بالحجج الواهية التي أوردها أعضاء اللجنة العليا للاتحاد الاشتراكي الذين هم أنفسهم كانوا جزءا أساسيا من النظام، وكانوا مسؤولين أكثر من غيرهم عما جري من أخطاء وانحرافات».

***



١٦

عبد الناصر لا يرحب بأي حكم ديمقراطي في وطن مجاور :

«أما المصلحة المشتركة التي التقى عندها ناصر بالولايات المتحدة في اختيار اللواء شهاب لرئاسة الدولة اللبنانية، فهي أن عبد الناصر كان يعتبر أن أي حكم ديمقراطي هو حكم نقيض لنظامه، بل هو عدو له، فكانت موافقته على اختيار اللواء شهاب الرجل العسكري منسجمة مع مصلحته».

***



١٧

عبد الناصر لم يكن يعتقد في أهمية السياسة إذا ما قورنت بالاقتصاد :

«كان جمال عبد الناصر يعتقد كما ذكر لي مرارا أن السياسة هي الاقتصاد، وأنه لا توجد سياسية وإنما يوجد اقتصاد».

***



١٨

عبد الناصر لا يرحب برئيس وزراء سياسي وانما يفضله فنيا :

«استدعيت مرة أخرى إلى القاهرة بتاريخ ٢٢ من سبتمبر ١٩٥٨م لمتابعة البحث في تشكيل الحكومة المركزية والحكومتين التنفيذيتين، وفيما يتعلق بالحكومة

المركزية قلت لعبد الناصر: أنت أعلم مني برفاقك المصريين الذين ستختارهم للوزارة المركزية، ولكن لابد أن أنقل إليك ما سمعته عن سيد مرعي هنا في القاهرة من أنه رجعي وغير مخلص في تطبيق قانون الإصلاح الزراعي ، أما بشأن الوزراء السوريين فلا اعتراض لي على أحد منهم، ولكنني أرى أن يعين صلاح البيطار لرئاسة الحكومة التنفيذية في سوريا لا وزيرا في الوزارة المركزية، وإنني لا أقول ذلك بدافع العلاقة الحزبية السابقة، فهذا أمر قد انتهى كما تعلم بحل الحزب، ولكنني لا أرى شخصا آخر بين الوزراء يمكنه إشغال هذا المنصب في الوقت الحاضر»

« قال ناصر: «يمكنني أن أعين السراج رئيسا للمجلس التنفيذي».

«قلت له:«أرجو ألا تظن أنني أحمل على السراج أي موجدة، إن علاقة حسنة تجمعني به بعد سقوط عهد الشيشكلي، وربما كان السراج رجل مخابرات جيد، ولكنه لا يصلح لرئاسة الحكومة التنفيذية، قال: إذا لم يكن السراج مناسبا لرئاسة المجلس التنفيذي فإنني سأعين نور الدين كحالة، فقلت له: إن نور الدين كحالة هو رجل فني ممتاز، وقد كان موضع ثناء الجميع أثناء توليه إنشاء مرفأ اللاذقية، ولكنه لا يتمتع بأية كفاءة قيادية أو سياسية» .

«قال: إنني لا أبحث عن الكفاءة السياسية، بل أبحث عن الكفاءة الفنية، وكان يبدو على وجهه الامتعاض والاستغراب عندما اقترحت صلاح البيطار كرئيس للمجلس التنفيذي».

«وفي نهاية المقابلة قلت لناصر: «إنني موافق في الأساس على تشكيل الحكومة المركزية، ولكنني فكرت طويلا بأمر مخالفة ذلك للدستور المؤقت فقال: «لا ضرورة للاهتمام بذلك ، بما أننا سنضع دستورا دائما للجمهورية العربية المتحدة في المستقبل القريب».

***

١٩

تصور عبد الناصر القاصر للتنظيم السياسي : قرارات فوقية :

« ... كما قال (أي عبد الناصر :مارس ١٩٥٨) إنه قرر تشكيل اللجنة العليا للاتحاد القومي من السادة: عبداللطيف البغدادي رئيسا، وأكرم الحوراني نائبا للرئيس، وزكريا محيي الدين ، وكمال الدين حسين ، وصلاح البيطار ، وأحمد عبد الكريم ، وكمال رفعت أعضاء» .

« وقال: إن تنظيمات الاتحاد القومي ستضم كافة المواطنين على اختلاف طبقاتهم وطوائفهم ونزعاتهم وآرائهم، باستثناء الشيوعيين الذين أعلنوا عداءهم للوحدة ورفضوا حل الأحزاب، وقال: إن اللجنة العليا سوف تعمل بإشرافه على بلورة المبادئ الفكرية والاقتصادية والاجتماعية للاتحاد القومي».

***

«وكان عبد الناصر قد أصدر بتاريخ ١٢ من يونيو ١٩٦٠م بوصفه رئيسا للاتحاد القومي عدة قرارات تنظيمية خاصة بهذا الاتحاد:

«١ ـ تعيين اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد القومي في الجمهورية، وتتألف من: عبد اللطيف البغدادي، عبد الحكيم عامر، زكريا محيي الدين، حسين الشافعي، أنور السادات، كمال الدين حسين، نور الدين طراف، نور الدين كحالة، أحمد الشرباصي، على صبري، رمزي إستينو، عبد المنعم القيسوني، كمال رفعت، عبد الحميد السراج، أمجد الطرابلسي، طعمة العودة الله، أحمد حنيدي، جمال الصوفي».

٢٠

عبد الناصر يخلق النزاعات بين معاونيه على صلاحيات يمنحها هو ويمنعها هو :

«... بذر جمال عبد الناصر باسم هذه التركيبة الجديدة التي سماها تنظيما بذور الخلافات والمشاحنات بين الوزراء المركزيين والتنفيذيين، وخلق بينهم نزاعا على صلاحيات لا وجود لها فعليا بين أيديهم إلا بمقدار رضا الرئيس عن أحدهم بالتقرب والزلفى».

***



٢١

كيف غذى عبد الناصر صراع الحوراني – البغدادي منذ بداية الوحدة :

« بعد عودتنا إلى دمشق أصدر عبد الناصر بتاريخ ٢٩ من مارس ١٩٥٨ القرار التالي:

«مادة أولى: يختص السيد عبد اللطيف محمود البغدادي نائب رئيس الجمهورية بالنظر في رسم وتنسيق السياسة العامة في الجمهورية العربية المتحدة في الشؤون الاقتصادية والإنتاجية ومراقبة التنفيذ بعد اعتمادها».

«مادة ثانية: يختص السيد أكرم الحوراني نائب رئيس الجمهورية بالنظر في رسم وتنسيق السياسة العامة للجمهورية العربية المتحدة في الشؤون الاجتماعية والخدمات العامة ومراقبة التنفيذ بعد اعتمادها».

***

٢٢

قصة تصميمات نهر بانياس نموذجا لخلافات الحوراني البغدادي ليكونا في النهاية تحت سيطرة عبد الناصر :

«حين اجتمعت اللجنة تحدث السيد البغدادي فحصر مهمتها في وضع التصاميم للاستفادة من نهر بانياس داخل أراضي سوريا، متجاهلا كل المناقشات التي دارت في جلسة مجلس الوزراء، فقامت بيني وبينه مناقشة حادة وقلت له : ليس الموضوع موضوع تصاميم، إذ لو كان الأمر كذلك لما كانت هناك حاجة لحضوري وحضورك وحضور معظم أعضاء هذه اللجنة، فأنا لست مهندسًا وأعتقد أنك أيضا مثلي لا تحمل شهادة الهندسة ومثل معظم أعضاء هذه اللجنة، وأن الموضوع سياسي وقومي خطير، إنه وضع خطة لمنع إسرائيل من تحويل مجري نهر الأردن، فنهر بانياس لا يعطل لا هو ولا الحاصباني مشروع إسرائيل كما يتبين من الإحصاءات والدراسات التي قدمتموها لنا أنتم بالذات، فكيف تريدون منا أن نتجاهل هذا الموضوع القومي الخطير لنبحث في أمور هندسية محضة؟ مع أنني موافق والجميع موافقون على وضع تصاميم تحول دون استفادة إسرائيل من كل قطرة ماء تذهب إليها من نهر الحاصباني وبانياس وعلينا أن نقنع لبنان بذلك».

«بقى البغدادي مصرا على موقفه قائلا : إنه ينفذ التعليمات التي تلقاها من الرئيس، فحصلت مشادة بيني وبينه لم ينهها إلا السيد على صبري الذي استمهلنا لحظات ريثما يتصل بالرئيس هاتفيا ليأتنا بالخبر الذي يحل هذا الخلاف.

«قال على صبري: «لا بأس من بحث الموضوع من الناحية السياسية بالإضافة إلى بحث مسألة استثمار مياه بانياس، فسررت لذلك واعتبرته تحولا في موقف الرئيس، ولم أكتم سروري وأردت أن أشجع إخواننا الوزراء المصريين فقلت لهم:

«لا تخشوا الحرب، ولو كانت هذه القضية تؤدي إلى الحرب لأدت لها في السابق عندما كانت سوريا وحدها في الميدان، ومع ذلك فلنفرض أننا دخلنا في حرب شاملة مع إسرائيل ، فإن هذا الموقف لا مناص منه وهو مفروض علينا».

***



التخلف الإعلامي :

يتحدث الحوراني آسفا عن خروجه بمحنة من رحلته مع الوفد المصري إلى الاتحاد السوفيتي.

«كشفت زيارة الاتحاد السوفيتي إسفاف جهاز عبد الناصر السياسي والإعلامي وتخلفه إلى درك يدعو للرثاء والحزن».

***



الآثار السياسية المدمرة لطريقة عبد الناصر وعبد الحكيم عامر في الاعتماد على أجهزة المخابرات :

«وهنا لابد لي من التوقف قليلا للإشارة بوضوح إلى ما كانت تعكسه طريقة عبد الناصر وعبد الحكيم عامر في الاعتماد على أجهزة المخابرات من آثار مدمرة على كل المرافق الحيوية، منذ ما قبل قيام الوحدة إلى هزيمة الخامس من يونيو التي أعلن عبد الناصر بعدها سقوط دولة المخابرات ، قال لي عبد الغني قنوت: «لقد نشأت خلال وجودي في الجيش المصري - الذي نقلت إليه إثر قيام الوحدة - صداقة بيني وبين أحد المصريين من الأساتذة الضباط في كلية الأركان، وكنت أتعجب مما بدا لي من ازدواج شخصيته، فهو في مجالسه الخاصة إنسان مثقف ذكي، لكنه لم يكن كذلك

خلال عمله في كلية الأركان، ولما سألته عن سر هذا الازدواج في شخصيته قال لي:

«إنني مضطر إلى ذلك يا عبد! فأنا أحاول أن أبقي أكثر مدة ممكنة في الجيش،ولا أريد أن أسرح منه، ولكنني أظن أن ذلك لن ينفعني طويلا لأن المشير له عيون ترصد الضباط فتسرح من تعتقد بخطره على الوضع بسبب قدرته واستقامته».

«ومن المؤسف أن الازدواجية في شخصية الإنسان العربي لم تعد مقتصرة على فئة قليلة من الناس، وإنما أصبحت طابعا عام للشخصية العربية في البلاد التي تستشري فيها أجهزة القمع، مما دعا بعض الدارسين النفسيين إلى الاهتمام بهذه الظاهرة المؤسفة التي تساهم في تحطيم شخصية الإنسان العربي».

«وقال لي قنوت أيضا: لقد كنا نتسلى عند اجتماعنا بإخواننا الضباط المصريين بالتنبؤ عمن ستطاله قوائم التسريح، وكثيرا ما صدقت هذه التنبؤات حتى أن أحد زملائنا المصريين علق على ذلك مازحا: «إزاي عم تعرفوا قوائم التسريحات؟ دانتوا مخابرات؟ قلنا له : «إننا نتنبأ بتسريح من يتمتع بالاستقامة والقدرة. ثم وصف قنوت النظام قائلا: إن هذا الوضع هو نظام مخابرات ومباحث من رأسه إلى إخمص قدميه، وأبدى تشاؤمه الشديد من المستقبل، وكان هذا الحديث بعد شهور من قيام الوحدة».

***



ثالثا : دراما الانفصال ووعي ناصر العميق بتآمر الصديق الأثير :

كيف أساء ناصر إلى سوريا بالفشل الذريع في حكمها ؟

عبد الناصر يفقد الثقة السورية تدريجيا .

«وهكذا بدأ جمال عبد الناصر يفقد شيئا فشيئا الثقة به في قلوب المسؤولين

السوريين كلما تكشفت لهم أساليبه في الاستغفال التي كان يلجأ إليها مستعينا بجميع ما يملك من وسائل وأجهزة».

***



الرئيس عبد الناصر كان معاديا للبعث، ويبحث عمن يعادي البعث لينصبه مسؤولا عن سوريا :

«وللوصول إلى غايته كان لابد من الاعتماد على مسؤول سوري يكن العداء لحزب البعث، يؤيده ويمنحه جميع السلطات للقيام بهذه المهمة، وقد وقع اختياره على ضابط المخابرات عبد الحميد السراج».

***

٢٧

عبد الناصر لم يحسن اختيار حلفائه السوريين بل قرب إليه مَن هم ضد توجهاته :

«ومع الأسف الشديد، فإن جمال عبد الناصر دق بحملاته الهوجاء علينا دون مبرر، اعتمادا على الرجعية السورية، المسمار الأول في نعش الوحدة، كما دق المسمار الثاني في نعشها عند ملئه المراكز الشاغرة للمجلس التنفيذي السوري في نهاية زيارته لسوريا».

***



يتعجب من العقلية البوليسية التي حكم بها الرئيس عبدالناصر سوريا مندهشا من قيام الملحق العسكري بتفتيش حقائب أكبر ثلاث شخصيات في الدولة :

«وفي تلك الفترة استدعي عبد الناصر اللجنة الثلاثية إلى القاهرة، فهيأ لنا عبد المحسن أبو النور (كان هو الملحق العسكري) طائرة خاصة أقلعت من مطار المزة، ومما يدل على العقلية التي حكم بها نظام عبد الناصر سوريا أن عبد المحسن أبو النور أمر بتفتيش حقائب نائبي رئيس الجمهورية عبد اللطيف البغدادي وأكرم الحوراني ووزير الداخلية زكريا محيي الدين».

***



كيف شرعن عبد الناصر لعامر صلاحيات حكم سوريا.

«أصدر جمال عبد الناصر بتاريخ ٢٢ أكتوبر ١٩٥٩ ثلاثة قرارات جمهورية تقضي بتعيين المشير عبد الحكيم عامر حاكما على سوريا مزودًا بصلاحيات رئيس الجمهورية.

ويقضي القرار الأول بتولي المشير الإشراف على تنظيم الاتحاد القومي في الإقليم السوري.

أما القرار الثاني فيقضي بما يلي:

«أ ـ الإشراف على السياسة العامة ومراقبة تنفيذ جميع القرارات التي تصدر لتدعيم الوحدة بين الإقليمين، ويكون مسؤولا عن ذلك أمام رئيس الجمهورية، وإصدار القرارات والأوامر التي تدخل في اختصاص رئيس الجمهورية، وذلك بموجب القوانين والقرارات النافذة في الإقليم السوري».

«ب ـ اعتماد برامج المشروعات اللازمة للإقليم السوري في حدود الاعتمادات المدرجة لها في الميزانية ومتابعة تنفيذها».

«جـ ـ النظر في توصيات المجلس التنفيذي السوري وفي مشروعات القوانين،

وكـذلك في الميزانيـة المقـترح تنفيـذها في هـذا الإقليـم قبـل عرضـها عـلى رئـيس الجمهورية».

«د - الإشراف عـلى كـل مـا يتعلـق بتنظـيم المـصالح والإدارات والهيئـات والمؤسسات في الإقليم السوري، ويكـون الـوزراء التنفيـذيون في الإقلـيم مـسؤولين أمام المشير في كل ما يتعلق بتنفيذ هذا القرار الذي يوضع موضع التنفيذ فورا».

«أما القرار الثالث: فهو: يقضي بربط مديرية الدعاية والأنباء في الإقليم الـشمالي بوزير الداخلية ، ورئيس المخابرات السورية عبد الحميد السراج، بينما كانـت في السابق مرتبطة مباشرة برئيس الجمهورية».

***



علاقة صراع ناصر وعامر بانتهاء الوحدة :

يتساءل مبكرا عن مؤامرة داود عويس : هل كانت لاجتثاث البعث ؟

«هل كانت مؤامرة عويس محاولة انقلابية على جمال عبد النـاصر، أم أنهـا مبـادرة من المشير استهدفت القضاء على قيادات حزب البعث وعلى سـمعتهم، ولا سـيما أن مهمة المشير عندما عين حاكما عاما على سوريا لم تكن إقصاء قيـادات حـزب البعـث عن الحكم فحسب، بل كانت اقتلاع جذور هذا الحزب من سوريا وخارجها».

«لم يكن يساورني أي شك عندما فاتحت عبد النـاصر بمـؤامرة عـويس أن يكـون المشير قد استهدف التآمر على جمال عبد النـاصر، وقـد اعتقـدت أن مظـاهر الدهـشة والانزعاج التي بدت على وجه عبد الناصر عنـدما أخبرتـه بهـا سـببها عـدم اطلاعـه على هذه القضية - كما قال - وأنها كانت بمبادرة من المشير عبـد الحكيم عـامر لينفـرد بحكـم سوريا دون معارض، أو أن المؤامرة تمت بمعرفة عبد الناصر فكانـت دهـشته

وانزعاجه من قبيل التمثيل».

«كنت عازفا منذ قيام الوحدة عن أي فضول لمعرفة المشاكل التي تحدث بين جمال عبد الناصر وبين وزرائه ورفاقه من العسكريين، ولكن الذي بدا لي بوضوح منذ قيام الوحدة ومنذ تشكيل أول وزارة في دمشق ولاسيما عند تشكيل الوزارة المركزية ومجيئي إلى القاهرة وإقامتي فيها، أن جمال عبد الناصر كان يطلب مني عندما يقتنع بوجهة نظري في أمر من الأمور أن أقنع المشير وأتفاهم معه عليها».

«كان لدي يقين بأن المشير هو الشريك الفعلي الوحيد في الحكم لجمال عبد الناصر دون رفاقه العسكريين الآخرين، وأن سبب ذلك الصداقة الخاصة بينهما التي توطدت منذ ما قبل قيام ثورة ٢٣من يوليو، تلك الصداقة التي اقترنت بالمصاهرة، وقد حضرت في بيت المشير حفلة عقد قران ابنته إلى أحد أشقاء عبد الناصر».

يقصد أحد إخوته فقد كان أخا غير شقيق .

***



كان واضحا من تصرفات المجموعة التي نفذت انقلاب النحلاوي علاقتهم الجيدة بالمشير عامر :

«ولذلك أعلنوا عودة الأمور إلى مجراها الطبيعي اعتمادا على حكمة المشير، دون أي ذكر لرئيس الجمهورية جمال عبد الناصر، وهذا من الأخطاء التي ارتكبتها الحركة والتي أثارت بلاريب شكوك جمال عبد الناصر بالرغم من محاولة تلافي هذا الإغفال في الأغاني والتعليقات التي أذيعت بعد البيان التاسع».

***

(٣٢)

الانقلابيون لم يواجهوا بمقاومة من ضباط تنظيم المشير السري :

«فمن المحتمل أن يكون هنالك إيعاز من المشير للضباط المصريين من تنظيمه السري بألا يقاوموا الانقلابيين، ويمكن أيضا أن يكون اتفاق المشير عامر مع الانقلابيين منذ اليوم الأول كان كافيا لامتناعهم عن المقاومة، لأن هذا الاتفاق لم يكن سريا، بل تم الإعلان عنه صراحة في البلاغ التاسع».

***

(٣٣)

عبد الناصر ألقى خطابه ليقطع الأمل في التفاهم مع الانقلابيين :

«والذي يبدو أن المشير عبد الحكيم عامر الذي ذهب منذ اليوم الأول إلى القاهرة، قد عاود محاولته لإقناع عبد الناصر - بعد محاولاته المتكررة من دمشق بواسطة اللاسلكي - أن الحركة لا تستهدف الوحدة، وإنما تستهدف تحقيق بعض المطالب التي تخص الجيش، وهي المطالب التي اتفق معهم على حلها، ولكن جمال عبد الناصر لم يقنع بأقوال المشير، على ما يظهر، فألقى خطابه .. ليقطع كل أمل بالتفاهم مع ضباط الانقلاب».

(٣٤)

حرص عبد الناصر على أن يكون باترا مع النحلاوي :

«لقد كان جمال عبد الناصر منذ صبيحة اليوم الأول لحركة النحلاوي مصمما على أن يقطع الطريق على أي تفاهم مع الحركة، فأصدر بوصفه القائد الأعلى

للقوت المسلحة أمرا بعزل المتمردين وتجريدهم من رتبهم وإعفاء ضباطهم وجنودهم من كل ولاء لهم. وهذا يعني دعوة الجيش للتمرد عليهم وإهدار دمهم».

***

٣٥

الحوراني، بعد سنوات، يرجح أن ما سمي بمؤامرة عويس كانت انقلابا عامريا بعثيا ضد عبد الناصر:

«... وهكذا افتتح جمال عبد الناصر بمناسبة محادثات الوحدة الثلاثية محضر تحقيق بقضية الضابط داود عويس مستجوبا ميشيل عفلق وصلاح البيطار والمشير عامر (في) آن واحد، دون أن يمس المشير بصورة مباشرة، فوقف باستجوابه عند هذا الحد عندما صرح بأن مؤامرة عويس كانت محاولة خلق شعور في الجيش ضد جمال عبد الناصر، وأن التفاهم مع المشير ممكن ولكن التفاهم مع جمال عبد الناصر غير ممكن. (ص ٥٨ محادثات الوحدة الثلاثية).

***



هزيمة ١٩٦٧ كشفت حقيقة نظام عبد الناصر وأسراره:

«بعد قراءتي مباحثات الوحدة الثلاثية، وبعد الأحداث التي تلت الخامس من يونيو في مصر، بدأت ظلال من الشكوك تراودني حول دور المشير في قضية مؤامرة عويس، فلقد أصبحت ميالا للاقتناع أن هذه القضية كانت محاولة جادة من قبل المشير للقيام بانقلاب ـ بالاتفاق مع حزب البعث ـ ضد جمال عبد الناصر، كما أصبحت شاكا بدور المشير في حركة ٢٨ من سبتمبر ١٩٦١م التي أدت للانفصال».

«إن هزيمة يونيو كشفت طبيعة نظام عبد الناصر وكثيرا من أسراره، ولاسيما ما يتعلق منها بدور دولة المخابرات، ودور مراكز القوى، ووضع الجيش، والعلاقة ما بين عبد الناصر والمشير عبد الحكيم عامر، لكن الأدلة التي قطعت كل شك عندي هي محاولات المشيرة المتكررة للانقلاب على جمال عبد الناصر أو تهديده بها، تلك المحاولات التي تحدث عنها عبد اللطيف البغدادي في مذكراته التي نشرها في أواسط السبعينات، وقد شرح فيها تفاصيل هذه المحاولات. (١٦٧ ـ ٢١٨ الجزء الثاني).

***

٣٧

الجيش السوري يكشف عن قرارات عسكرية مريبة لعبد الحكيم عامر:

«وقد نشرت قيادة الجيش السوري بعد الانفصال صورة للأمر الذي أصدره المشير عبد الحكيم عامر بانسحاب الجيش السوري من المعركة بعد استيلاء الجيش الإسرائيلي على منطقة التوافيق في الأرض الحرام».

***

٣٨

هكذا تأكد الحوراني أن حركة النحلاوي كانت جزءا من انقلاب عامري على عبد الناصر:

«يمكننا أن نؤكد أن هدف ضباط حركة النحلاوي هو الاشتراك في حكم سوريا تحت قيادة المشير عبد الحكيم عامر، لذا طلبوا من المشير أن يصطحبهم معه إلى القاهرة، ولو قبل جمال عبد الناصر بما اتفقوا عليه مع المشير عامر لما أدت حركة النحلاوي إلى الانفصال، ولكن عبد الناصر في ظل خلافه الطويل مع المشير،

والذي أشار إليه عبد اللطيف البغدادي في مواضع متعددة من مذكراته، لم يخدع بهذا الموقف الذي كان حلقة تالية لمؤامرة الضابط عويس التي أشرت إليها بالتفصيل، وقد انتهت هذه السلسلة من المؤامرات بمحاولة المشير الانقلابية الأخيرة التي جرت بعد هزيمة الخامس من يونيو، وكان الضابط جلال هريدي من أركانها».

***

٣٩

القصة الفاصلة التي يدلل بها على نظريته :

«إن أحد الضباط من سلاح المدفعية كان قد أبلغه عن طريق مكتبه في أوائل يناير عام ١٩٦٢ عن وجود تنظيم سري في الجيش باسم الضباط الأحرار، وأن هذا التنظيم يرأسه الضابط حسن رفعت، وأن لهذا التنظيم لجنة تأسيسية مكونة من خمسة عشر عضوا، وأنه لاحظ قبل حدوث الانقلاب في سوريا (أي ماسمي: الانفصال في ٢٨من سبتمبر ١٩٦١م) بثلاثة أشهر أن أحاديثهم في اجتماعاتهم كانت تدور حول الوضع القائم في مصر والفساد والانتهازية والاستغلال، وأنه لن يقضي على هذا الفساد المنتشر إلا إذا تخلصوا من جمال عبد الناصر، وأن يتولى الأمر في البلاد بدلا منه عبد الحكيم عامر، وقال جمال: «إن ما أخبره الضابط من معلومات قد تأكد بنفسه منها، وأنها صحيحة، وأن الضابط قال له: «إن تركيز الهجوم قد بدأ أثناء وجودهم في سوريا قبل الانقلاب (الانفصال) واستمر بعد عودتهم للقاهرة، وأن الاتفاق تم بين أعضاء التنظيم على القيام بانقلاب في شهر مارس ١٩٦٢ .

كما جاء في مذكرات البغدادي:

«إن جمال عبد الناصر أمر بإحالة ٢٥ ضابطا إلى المعاش من المتصلين بموضوع

داود عويس المتهم بإرسال منشورات سرية باسم الضباط الأحرار، كما أمر كذلك بإلقاء القبض على اليوزباشي حسن رفعت.

يعلق البغدادي أخيرا على هذه الأحداث بقوله:

«إنه لا يعلم كيف عمل جمال على تسوية الخلاف مع عبد الحكيم، ولا كيف تمت هذه التسوية، لأن جمالًا لم يذكر لي شيئا عنها، وقد بقيت القيادات العسكرية التي كان من الواجب العمل على نقلها من أماكنها دون تغيير».

***



دليل جديد على صحة النظرية التي آمن الحوراني بها :

«لقد كان ضباط الانفصال يطمعون بحكم سوريا تحت قيادة المشير عبد الحكيم عامر - كما أشرت إلى ذلك سابقا - » .

«ولهذا صدر البلاغ رقم ٩ يوم ٢٨من سبتمبر ١٩٦١م الذي اقتصر فيه ضباط الانفصال على المطالبة بإصلاح أوضاع الجيش بالاتفاق مع المشير، ولكن هذه المحاولة لم تخف على عبد الناصر فرفض مصالحتهم واعتبرهم عصاة متمردين، واستدعى المشير إلى القاهرة الذي لم يتمكن من إقناع ناصر بالتفاهم مع النحلاوي وجماعته في الجيش».

«هذا كان موقف جمال عبد الناصر، أما موقف الجيش السوري فقد أثار البلاغ رقم ٩ احتجاجه بل وثورته، حتى لقد هدد العديد من قطاعات الجيش النحلاوي وجماعته بأنهم سيهدمون مبني وزارة الدفاع على رءوسهم إذا لم يتراجعوا عن البلاغ المذكور».

***

٤١

والآن : نعود إلى تقييمه المبكر لعلاقة عبد الناصر وعامر :

«كان المشير عامر يتمتع بصفات صعيدية تجعله محبوبا، فقد كان متواضعا ودودا لأتباعه ومريديه، ومنفذا لمصالحهم، وعلي صلة مباشرة معهم، وذا نخوة لمساندتهم وحل مشاكلهم، وكان يعتبر بنظر الكثيرين من المتصلين به أنه رجل شعبي وقريب من الناس، وقد شعرت منذ اليوم الأول لإعلان الوحدة وأثناء المداولات في دمشق لتشكيل أول حكومة، بأن المشير كان له الرأي الأول بعد عبد الناصر، وعندما كنا نختلف مع جمال عبد الناصر كان يطلب منا أن نرجع إلى المشير عبد الحكيم عامر، كما كنا نشعر بعد كل اجتماع للوزارة المركزية، بأن للمشير مكانة خاصة بين جميع الوزراء من ضباط الثورة السابقين، فهو الوحيد الذي كان يشارك جمال عبدالناصر في صنع القرارات دون أن نشعر بأي تناقض بينهما».

***

٤٢

إحساسه المبكر أن عبد الحكيم عامر كان يخطط للاستئثار بسوريا :

«كان المشير عامر يخطط منذ قيام الوحدة لأن يجعل سوريا قطاعاً خاصاً به، سواء على مستوى الجيش أو على المستويين السياسي والشعبي، ولشعوره بأن حزب البعث كان مواليا لعبد الناصر، قام منذ العام الأول للوحدة بتفريغ الجيش السوري من الضباط القريبين من البعث الذين تم نقلهم بالتدريج إلى القاهرة، واستبدل مواقعهم في الجيش بضباط التكتل الشامي المناهض للبعث، كما دعم مركزه بنقل العديد من أعضاء تنظيمه السري من الضباط إلى الجيش السوري، واستمر في ذلك حتى تاريخ الانفصال».

٤٣

نجاح المشير في إبعاد الضباط الناصريين المؤثرين عن الجيش باختيارهم وزراء :

«أما بالنسبة للمشير عبد الحكيم عامر فقد كانت التعديلات الوزارية التي جرت عام ١٩٦٠ للمجلس التنفيذي السوري مناسبة لإسناد بعض الوزارات إلى عدد من ضباط الجيش السوري والموالين له ، وهم: أكرم الديري، وطعمة العودة الله، وجمال الصوفي، وأحمد جنيدي، فأصبح المجلس التنفيذي الذي تشكل من هؤلاء العسكريين ومن بعض الفنيين برئاسة المهندس نور الدين كحالة في قبضة المشير عبد الحكيم عامر».

***

٤٤

اندهاش الحوراني لقبول عبد الناصر بإبعاد ضباطه عن الجيش :

وعن هذه الجزئية (التي ظلت محيرة له) قال الحوراني أيضا :

«ومن المدهش ألا يدرك عبد الناصر ـ بالنسبة لمصلحته ـ أن قيمة هؤلاء الضباط الذين اصطنعهم وزراء (في مارس ١٩٦٠) هي بقاؤهم في الجيش، وهو لا يجهل بأنه ليس لهم أي قيمة سياسية أو خبرة فنية أو كفاءة علمية أو إدارية يستفيد منها النظام، ولاشك عندي أن شطب هؤلاء الضباط من الجيش وتعيينهم وزراء كان بدافع من المشير عبد الحكيم عامر».

***

٤٥

نشأة البؤرة المعادية لعامر في الاتحاد القومي في سوريا :

«وهكذا أصبحت مقرات الاتحاد القومي في سوريا مراكز لمقاومة المشير عبد الحكيم عامر، ولانتقاد نظام جمال عبد الناصر، كما جرت محاولات للتظاهر والإضراب (النقل الداخلي والمخابز) واستغلت عناصر اليمين التي تضررت من التأميم هذا الجو، وبهذه المناسبة أذكر أن الدكتور جمال أتاسي زارني في تلك الفترة وقال لي: إن اليمين السوري متفائل باقتراب ساعة الفرج».

«لقد كان من نتيجة الجو الذي ساد سوريا بعد عودة السراج، أن أصدر الرئيس عبد الناصر مرسوما يقتضي بإدماج الاتحاد القومي في كل من الإقليمين والسوري والمصري، وبموجب هذا التدبير انتهى دور السراج كأمين سر للاتحاد القومي في سوريا، كما أرسل المشير عامر قوة عسكرية أغلقت مقرات الاتحاد القومي، إضافة إلى صدور قرار بتوحيد المخابرات بين الإقليمين، واستنادا إلى هذا القرار ؛ فإن وزير الداخلية المصري عباس رضوان قد أصدر قرارا بنقل ضباط المخابرات السوريين إلى القاهرة، ولما تمرد هؤلاء الضباط، وامتنعوا عن تنفيذ أوامر النقل، أصدر المشير عبد الحكيم عامر أمرا بإلقاء القبض على المتمردين والممتنعين توطئة لمحاكمتهم، فهرب بعضهم إلى لبنان، وتواري بعضهم الآخر».

«وفي هذا الجو قدم السراج استقالته التي أعلنت يوم ٢٢من سبتمبر ١٩٦١م، أي قبل عدة أيام من تاريخ الانفصال».

***

٤٦

عبد الناصر كان يظن نفسه صاحب ثورة ٨ من مارس في سوريا فإذا به يكتشف أن الثورة بعثية :

«ولذلك فإن عبد الناصر اتهم البعثيين بعد اختلافه معهم بأنهم سرقوا منه ثورة الثامن من مارس».

***



و أخيرا ... عبد الناصر يتفق مع الاتحاد السوفييتي على تأييد انقلاب صلاح جديد :

«قال لي عن لسان بكداش: إن الاتحاد السوفيتي اتفق مع جمال عبد الناصر على تأييد انقلاب ٢٣ من فبراير ١٩٦٦م وإن خالد بكداش يرى ذلك فرصة مناسبة للتعاون بين الاشتراكيين العرب والشيوعيين».

***



تشخيص ميشيل عفلق لإمبريالية عبد الناصر :

«وفي موقف آخر يقف الأمين العام الأستاذ (عفلق) ويقول:

«إن عبد الناصر هو أشد خطرا من بريطانيا، وإن مصر تعتبر نفسها دولة كبرى في الشرق الأوسط ، ولها فيه مطامح إقليمية، وبعد سبعة أشهر من قيام الوحدة، سبعة أشهر فقط خططت عملية انقلابية لم تنل موافقة المؤمنين».

***

٤٩

خيبة أمله العميقة والمبكرة نتيجة ما يسميه مساومة عبد الناصر بمصالح الشعب السوري :

«لم يخطر ببالي آنذاك أن يجيبني عبد الناصر عندما فاتحته بضرورة الموافقة على هذا المشروع بأنه لا يمكنه ذلك، لأن هذا الأمر هو موضع مساومة بينه وبين الولايات المتحدة لقاء مساعدتها بتعميق قناة السويس، وأنه لا يوافق على اتخاذ أي إجراء تجاه الشركة».

«تلقيت جواب عبد الناصر، كما يتلقى الإنسان الأرض عندما يلقى به من حالق، ولم أتصور أبدا أن تصبح مصلحة سوريا موضع مساومة قُطرية من جمال عبد الناصر، تضاءل العملاق كثيرا ولكنني كتمت مشاعري».

***



رابعا : الفشل العسكري الذريع :

حسابات عبد الناصر الخاطئة قبل حرب ١٩٦٧ وتصوره إمكان السيطرة على الأزمة :

«لاشك أن سبب ذلك ثقته بأنه سيستطيع السيطرة على الأزمة بحيث لا تخرج عن إطارها السياسي فينتزع بالطرق الدبلوماسية ما خسره في حرب السويس؛ لأن الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي لن يسمحا بقيام حرب في المنطقة يمكن أن تهدد السلام العالمي، وأن تسوية هذه الأزمة ستعيد سياسة التفاهم التي انقطعت بين الولايات المتحدة ومصر».

٥١

نموذج لتهديدات عبد الناصر الجوفاء المبكرة :

«وقد جاء في خطاب عبد الناصر في احتفال الإسكندرية ١٩٥٩م :

«إننا سنصنع بأنفسنا المدرعات والدبابات والطائرات والمدافع»، وكان هذا القول ردا على تصريحات موشي ديان الذي هدد باحتلال سيناء والضفة الشرقية لقناة السويس ، إذا لم تسمح الجمهورية العربية المتحدة بمرور السفن الإسرائيلية في قناة السويس..» .

"كما قال عبد الناصر ذلك في الخطاب قاصدا موشي ديان: «أعتقد أن هذا الرجل يخرف أو يعيش في الأوهام.. إنه يحلم ويتخيل.. إنه يقول: «إن على إسرائيل أن تحتل سيناء ونحن نقول : إننا بالانتظار، وأن هذه المعركة ستكون فاصلة وستنتهي إسرائيل، هذا هو يا إخواني حلم العرب وهذه هي أمنية الأمة العربية».

***



٥٢

تبادل الاتهامات في طائرة المشير في الجو صباح ٥ يونيو :

«لقد كان الضابط أركان حرب أكرم الديري (من سوريا) الذي تقلد خلال عهد الوحدة وزارة العمل والشؤون الاجتماعية في الإقليم السوري مع المشير عامر في طائرة القيادة التي كانت في طريقها لتفقد المواقع في سيناء عندما فوجئت القيادة بالقصف الإسرائيلي للمطارات المصرية، يقول أكرم الديري: «إن قائد الطيران الفريق محمود صدقي توجه باللوم ، ووجهه ممتقع إلى المشير عامر قائلا له: ألم أحذركم من قبل بأنه يجب اتخاذ الاحتياطات اللازمة لحماية الطائرات من هجوم

إسرائيلي مفاجئ؟ فلم يحر المشير جوابا على هذا الاتهام».

«ومما يدل على عدم الدقة والجدية في تحري أسباب هزيمة يونيو إحالة قائد سلاح الطيران محمود صدقي إلى المحاكمة ليكون كبش الفداء لكارثة الطيران المصري في الخامس من يونيو».

***



هل كانت حرب ١٩٦٧ فصلا من صراع عبد النصر و عامر :

«في مقال نشرته مجلة «لو نوفيل أوبسرفاتور» بتاريخ ٢٠ من سبتمبر ١٩٦٧م بقلم الصحفي اللبناني إدوار صعب، حيث تقول المجلة: إن مصادر المقال هي عربية وأمريكية وسوفيتية. يقول كاتب المقال: إن حوارا جرى بين عبد الناصر وكبار ضباط الجيش بعد هزيمة يونيو صارحوه فيه بمسؤوليته عن الهزيمة في الحرب، إذ كان الاتفاق معهم البدء بالهجوم، وحدد لذلك موعدا هو ٢٨ من مايو، لكن تحت إلحاح السوفيت ألا تكون مصر البادئة بالحرب، تصرف ناصر بشكل فردي ونقض ذلك الاتفاق، الأمر الذي اعتبرته قيادة الجيش خطأ فادحا فتصرفت بسلبية مجرمة عندما أقام محمد صدقي محمود قائد سلاح الطيران حفلة لضباط الطيران في مساء ٤ من يونيو وعندما ذهب اللواء مرتجي قائد القوات البرية ، ليستجم مع زوجته في الإسماعيلية، ويتساءل كاتب المقال أخيرا:

«هل لعب الجنرالات لعبة الهزيمة العسكرية ثم جاؤوا مساء التاسع من يونيو وهم يعتقدون أنهم حققوا انتصارهم بإجبار ناصر على الاستقالة لمصلحة عامر؟».

***

٥٤

خسائر حرب اليمن أثخنت مصر واليمن نفسها :

«وقد أساءت هذه الحرب إلى سمعة الجيش وكفاءته العسكرية، وأضرت بروحه المعنوية ، فقد كانت الخسائر البشرية والمادية كبيرة جدا لا تقوى حتى الدول الكبرى على احتمالها، إذ بلغت ضحايا الجيش المصري أكثر من عشرين ألفا، بينما قدرت ضحايا الشعب اليمني بمائتين وخمسين ألفا، وقدر عدد المهجرين إلى المملكة العربية السعودية بنصف مليون، وكانت النتيجة بعد خمس سنوات من القتال المرير أن أصبح ثلث الجيش المصري مسمرا في مثلث: تعز ـ صنعاء ـ الحديدة، بينما كان باستطاعة عبد الناصر إيقاف هذه الحرب بتنفيذ ميثاق جدة ، الذي أقر تأليف حكومة يمنية حيادية مؤقتة تمهد لانسحاب قواته».

***

٥٥

خامسا الفشل في الصراع مع إسرائيل ، وسوء معالجة عبد الناصر لقضية فلسطين :

يتعجب من حديث مبكر لعبد الناصر يتوقع فيه سحب إسرائيل المياه من بحيرة طبريا .

«ومما يلفت النظر هنا أنه لم يكن معروفا حتى هذا التاريخ أن إسرائيل ستلجأ إلى سحب المياه من بحيرة طبريا ـ ولقد كانت افتراض عبد الناصر موضع استغراب منا وظننا أنه أورده ليعزز به موقفه من الناحية الجدلية، ولكن إسرائيل بدأت فعلا بسحب المياه من طبريا وذلك بعد زيارة بن جوريون للولايات المتحدة في مارس ١٩٦١ عندما أقنعه أيزنهاور بتعديل المشروع مؤقتا».

٥٦

عبد الناصر لم يكن واعيا بأثر الزمن وكان يظن أن بإمكانه اللحاق بالتقدم الإسرائيلي :

«لقد استنتجت خلال حوارنا في الوزارة المركزية حول تحويل نحو الأردن أن جمال عبد الناصر كان يقدر أن الزمن سيكون بجانب العرب بالنسبة لحل القضية الفلسطينية، وكنت أرى أنه كان مخطئا في هذا التقدير، فعندما قال : إنه لن يدخل الحرب إلا إذا صنع طائرة مقابل الطائرة التي ستسقط، قلت له: إن الإسرائيليين يستوردون حتى الآن السلاح كما نستورد، وعندما سنصبح قادرين على صنع الطائرة والدبابة سيكونون قد صنعوا الصواريخ أيضا».

***



٥٧

موقف عبد الناصر المضاد لإنشاء الدولة الفلسطينية :

«... كان عبد الكريم قاسم يؤكد على ضرورة فصل الضفة الغربية عن الأردن، وإنشاء دولة فلسطينية يحكمها أهلها وتساعدها الدول العربية، وقد صرح بتاريخ ٩من يناير ١٩٦٠م قائلا:

«إن الوقت يسير ضد مصالح الأمة العربية، وإن هذا الظرف أنسب الظروف لإقامة جمهورية فلسطينية، وكشف النقاب عن مذكرة الهيئة العربية العليا التي أرسلت إليه ، والتي تطلب وضع الأسس لجمهورية فلسطينية».

«وقد سئل الحاج أمين الحسيني عن هذه المذكرة فأكد ذلك، ولكن دعوة عبد الكريم قاسم إلى إنشاء جمهورية فلسطينية لقيت معارضة شديدة من حكومة

الجمهورية العربية المتحدة ومن حكومة الأردن بسبب ضم قطاعي غزة والضفة إلى كل من مصر والأردن، مما أدى إلى تأجيل اجتماع الجامعة العربية لبحث موضوع تحويل إسرائيل لنهر الأردن عدة مرات».

«ولكن دعوة عبد الكريم قاسم لإنشاء الجمهورية الفلسطينية كان لها صدى عميق عند الشعب الفلسطيني، فأصبحت دعوته التي لم يكتب لها النجاح آنئذ السبب - فيما بعد - لقبول الدول العربية اقتراح أحمد الشقيري وجمال عبد الناصر في مؤتمر القمة عام ١٩٦٤م بإنشاء منظمة التحرير الفلسطينية هيكلا خاويا لا حول لها ولا طول ولا أرض، ودمية يتلهى بها الشعب الفلسطيني».

«لكن الثورة الفلسطينية ملأت بعد هزيمة الخامس من يونيو عاما ١٩٦٧م فراغ هذه المنظمة ، وخواءها بتأييد شعبي فلسطيني وعربي، واعتراف عربي ودولي، فانقلبت إلى منظمة ثورية خلافا لما قدر لها أن تكون».

***

٥٨

القبول باشتراط ألمانيا في مساعدة سوريا في عهد الوحدة ألا تستخدم المعونة ضد إسرائيل:

«إن تلزيم ألمانيا الغربية مشروع سد الفرات قد تم في أوائل الشهر السابع من عام ١٩٦١ نتيجة للمفاوضات التي جرت بين وفد الجمهورية العربية المتحدة برئاسة عبد اللطيف البغدادي، وبين وفد ألمانيا الغربية برئاسة إيرهارد».

«وبتاريخ ٣ من يوليو ١٩٦١م نشرت جريدة الحياة ما يلي:

«وقد تم الاتفاق على مبالغ معينة لها صفة القروض لتمويل المشاريع التي تقوم بها الجمهورية المتحدة، ولم تحدد المباحثات هذه المشروعات باستثناء سد الفرات،

وعلم أن إنجاز المشروع سيتم في وقت أقصر من المدة المحددة (أي في المشروع السوفيتي) وهي عشر سنوات، كما علم أن المبلغ الذي ستمنحه ألمانيا الغربية لينفق على سد الفرات يبلغ ٥٠٠ مليون مارك، وهو قرض مدته عشرون عاما».

«أما القروض الأخرى فهي:

«١٥٠ مليون مارك تسدد على ١٢ سنة».

«١٥٠ مليون مارك تسهيلات ائتمانية على سبع سنوات».

«٢٥٠ مليون مارك اتفاق مدفوعات لمدة عشر سنوات، وهذه القروض تضاف إلى مبلغ الـ٥٠٠ مليون مارك.

كما قرر الوفدان دراسة موضوع قرض آخر لتمديد أنبوب بترول من الجزيرة في سوريا إلى البحر الأبيض المتوسط بمبلغ ٣٠٠ مليون مارك».

«ومن الجدير بالذكر أن أدينباور صرح في ١٤من يوليو ١٩٦١ بأن المساعدات التي تقدمها ألمانيا للجمهورية المتحدة لن تستعمل في شن هجمات ضد إسرائيل، كما قال: «مازلنا ندفع لهذه الدولة (إسرائيل) المبالغ المتفق عليها، والقسط الأخير سندفعه عام ١٩٦٣من ونحن نتمسك بالتزاماتنا الأدبية تجاه إسرائيل».

***



سادسا : سوء إدارة العلاقات العربية، نقد سياسة عبد الناصر في لبنان في ١٩٥٨م :

«لقد خرجت من هذه الاجتماعات الرسمية ، ومن فحوى الخطب النارية التي ألقاها جمال عبد الناصر والوفد العراقي بالنتائج التالية:

«أولا: أن جمال عبد الناصر قد وعد الولايات المتحدة بحماية جنودها في لبنان

ومنع القوى الوطنية بنفوذه من التعرض لهم أو مهاجمتهم، وهذا ما يفقد نضال الفريق الوطني معناه الحقيقي، ويجعل القتال في لبنان وكأنه كان اقتتالا طائفيا محضا ، وهذا ما جرى فعلا».

«ثانيا: أن جمال عبد الناصر والحكومة العراقية قد تعهدوا للولايات المتحدة وبريطانيا بعدم تعديل اتفاقيات النفط الجائرة مع شركة الـ«آي بي. سي» البريطانية، وقد طلب منهم أن يكون هذا التعهد وسط الاحتفالات الجماهيرية بدمشق، مما سيكون له تأثيره وانعكاسه النفسي على جماهير الشعب المتحمسة في العراق في وقت كانت الأوساط البترولية في لندن تخشى تعديل هذه الاتفاقيات، وأن تبدأ الحكومة العراقية بإعادة النظر في الاتفاقيات المعقودة مع شركات البترول الغربية، وأن تتبع هذه الخطوة خطوة أخرى هي تأميم البترول العراقي، وقد أشارت إلى هذه المخاوف بعض الصحف البريطانية».

«ثالثا: اتفاق جمال عبد الناصر والحكومة العراقية على استبعاد أي مشروع اتحادي بين العراق والجمهورية العربية المتحدة، وقد ظهر ذلك واضحا في صيغة البيان المشترك والخطب التي ألقيت».

«رابعا: كان واضحا أن عبد الناصر سيراهن على عبد السلام عارف ليكون تابعه في حكم العراق بدلا من عبد الكريم قاسم والأحزاب العراقية».

***



عبد الناصر اتفق مع الغرب بينما ورط السوفييت :

«خامسا: كان يبدو على جمال عبد الناصر وأعضاء الوفد العراقي الاطمئنان التام رغم الإنزال الأمريكي في لبنان ، والبريطاني في الأردن، وبالفعل فإن الولايات

المتحدة وبريطانيا قد أعلنتا في اليوم الثاني لزيارة الوفد العراقي لدمشق أنهما اتفقتا على عدم الاعتداء على العراق وتجميد الموقف في الشرق الأوسط ريثما يتم خلال أسابيع سحب الجنود الأمريكيين من لبنان وشرق الأردن، وفي الوقت نفسه كانت فرنسا تعلن سخطها وغضبها من إهمال حليفتيها في إشراكها بشؤون وأحداث الشرق الأوسط ولاسيما في لبنان، هذا في الوقت الذي كانت فيه أنباء المناورات السوفيتية تشغل حيزا كبيرا من أعمدة صحف العالم واهتمامها: «خمسة ملايين جندي سوفيتي على طول الحدود مع الشرق الأقصى لأوروبا»، وقد قدرت المصادر الغربية الحشود السوفيتية على الحدود الإيرانية والتركية فقط بـ٢٤ فرقة تضم أكثر من نصف مليون جندي».

***



يدين تصرفات الرئيس عبد الناصر تجاه الثورة الجزائرية وقيادتها المخلصة وإصراره على أن تكون الثورة الجزائرية أداة من أدواته بينما رفض الجزائريون :

«وفي رأيي أن غضب عبد الناصر لم يكن ضد فرحات عباس شخصيا، بل كان ضد السياسة التي انتهجتها حكومة الثورة ضد المخابرات المصرية التي حاولت أن تتغلغل إلى صفوفها، وكان عبد الناصر قد جعل المخابرات المصرية وسيلة الاتصال بينه وبين الحكومة الجزائرية التي كانت تصر على الاتصال به مباشرة، كما كانت تصر على حريتها باتخاذ مواقفها السياسية وترفض أن تكون أداة من أدواته، ولذلك انتهجت سياسة الحياد تجاه الخصومات بين ناصر والحكومات العربية الأخرى، وحاولت أن تستفيد من جميع هذه الحكومات، لاسيما أن العراق منذ عهد نوري السعيد كان من أكثر الدول العربية التي تمد الثورة الجزائرية بسخاء.

٦٢

عبد الكريم قاسم يواصل سياسة نوري السعيد في الدعم القوي للثورة الجزائرية :

وقد استمر العراق في عهد قاسم في تأييد ودعم الثورة الجزائرية أكثر من السابق، وكان قاسم يحاول أن يفوز بمباراة دعم الثورة الجزائرية تجاه الدول العربية الأخرى، لأن في ذلك تحسين شعبيته وسمعته في العراق والعالم العربي».

***



محاولة عبد الناصر احتواء الثورة الجزائرية أدت إلى تمزيقها :

«وقصارى القول فإن جمال عبد الناصر كان يحاول أن يحتوي الثورة الجزائرية، وأن يجعل من قادتها تبعا له كعبد السلام عارف وأخيه عبد الرحمن في العراق، والسلال في اليمن، وقد أدت سياسة عبد الناصر هذه إلى العديد من الكوارث فمزقت ثورة الجزائر، وأدت إلى اقتتالهم وإلى وقوع أول انقلاب على الحكومة المؤقتة، و إلى الخلاف بين خيضر وبن بللا، ومن ثم إلى انقلاب بومدين على حكم بن بللا، ولا مجال هنا للإسهاب عن الآثار السلبية التي أحدثتها المخابرات المصرية في الجزائر إبان حكم بن بللا ، حتى أصبح الجزائريون ينظرون إلى المصريين الوافدين إلى الجزائر بالحذر وعدم الثقة».

***

٦٤

عبد الناصر عمل على بث الشقاق بين قادة الثورة الجزائرية ولم يكن يقبل بأقل من حكومة تابعة له :

«في هذا الظرف بالذات لعب نظام عبد الناصر وأجهزته دورا خطيرا ومكشوفا في الخلاف الذي نشأ بين قيادات الثورة الجزائرية، وفي تحريض بن بللا وجماعته على إقامة نظام في الجزائر مماثل لنظامه وتابع له، وقامت أجهزة الإعلام الناصرية بحملة مركزة على حكومة بن خدة مما اضطره إلى إرسال احتجاج إلى جمال عبد الناصر بتاريخ ١٧ من يوليو ١٩٦٢م».

***



عبد الناصر يدعو إلى الاتفاق وهيكل يشن حملة دعائية مغرضة ضد حكومة بن خدة :

«لقد لعب جمال عبد الناصر دورا مزدوجا، ففي الوقت الذي دعا فيه بخطبه إلى الوفاق والاتفاق بين قادة الثورة، فإن محمد حسنين هيكل، وكان ضمن الوفد الذي أرسله للمصالحة، قد شن بعد رجوعه إلى القاهرة حملة دعائية مغرضة ضد حكومة ابن خدة، وهكذا بدأت الجزائر عهدها الاستقلالي بانقلاب عسكري بقيادة بن بللا وبتحريض من جمال عبد الناصر، ولم تجد جميع الوساطات التي قام بها بعض قادة الثورة للوفاق بين بين بللا ويوسف بن خدة».

***

٦٦

الحقيقة الغائبة: عبد الناصر بلغ حدا خطيرا في إرهاب بن بللا:

«يقول خالد العظم في مذكراته: «وقد روت لي صديقة بلغة التأكيد، بينها وبين بن بللا صلات وثيقة واعتماد متبادل، أنه يكره عبد الناصر من كل جوانحه، لكنه يخشاه ويحسب حسابا لعداوته وللمؤامرات التي قد يتعرض لها، كما تعرض لها سواه إن لم يسايره، وفي طليعة ما يخشاه أن يقلب له عبد الناصر ظهر المجنّ وأن يلتزم بن خدة أو فرحات عباس».

«إن السيدة التي يشير إليها خالد العظم في مذكراته هي السيدة المحترمة عادلة بينهم الجزائري رئيسة الاتحاد النسائي السوري قبل انقلاب الثامن من مارس ١٩٦٣م، وقد كانت صلاتها وصلات السيدة المحترمة ابنتها أمل الجزائري مديرة مدرسة دوحة الأدب، صلات وثيقة بأحمد بن بللا، وكانت السيدة أمل على رأس الوفد الذي رافق جثمان جدها الأمير عبد القادر من دمشق إلى مثواه الأخير في الجزائر».

***

٦٧

عبد الناصر يحاول الرهان على بن بللا بعد فوات الأوان وهيكل يوجه المدفعية ضد بومدين:

«وقد كتب هيكل عن هذا الحدث: «إنه لا يستطيع أن يتصور أن تقتصر ردود الفعل على سقوط بطل عربي على الصمت المطلق»، كما أعرب عن دهشته بأن يتهم إنسان كأمين الحافظ رئيس مجلس الرئاسة السوري الرئيس بن بللا بالانحراف

والطغيان والتسلط، واتهم البعث بأنه سارق انقلابات، وأن موقف دمشق العربية من انقلاب الجزائر قد لوث الشرف العربي والكرامة العربية، وقال: إن البعث كان يقصد القاهرة بحملته ولم يقصد بن بللا الذي كان منحازا للقاهرة».

***

٦٨

الحوراني يشير بسعادة إلى حقيقة تاريخية مهمة تكشف فشل عبد الناصر : استمرار محور دمشق الجزائر حتى الآن .

«ومن الجدير بالذكر أن محور دمشق الجزائر قد استمر بصورة وثيقة ولاسيما بعد الانقلاب الذي قام به صلاح جديد في ٢٣من فبراير ١٩٦٦م».

***

٦٩

الحوراني يستصغر موقف عبد الناصر مع الكويت في مواجهة عبد الكريم قاسم :

سابعا قصور الرؤية الاقتصادية والإدارية :

«ولابد لي بهذه المناسبة من التذكير بأن جمال عبد الناصر قد أرسل عام ١٩٦٠م قوة من جيشه لحماية الكويت عندما أعلن عبد الكريم قاسم عزمه على ضمها إلى العراق، فعسكر الجيش المصري إلى جانب الجيش البريطاني هناك، ونتيجة موقف عبد الناصر هذا فقد دفعت الكويت لنظامه مبلغ ٥٠ مليون جنيه».

***

٧٠

سابعا : الفشل الإداري والتنفيذي :

عبد الناصر يبتدع سياسة التلفيق اللحظي في الخطة بعد الاجتهاد في وضعها :

«بعد ثورة ٢٣من يوليو أنشئ ما سمي بمجلس الإنتاج، وكانت كوادره من خبراء مصر لوضع خطة إنمائية تضع حلولا لمشاكلها الاجتماعية والاقتصادية المستعصية، وقد ذكرت سابقا أنني زرت مجلس الإنتاج عام ١٩٥٦م، وكان فؤاد جلال رئيسا له حيث حدثنا أعضاء المجلس آنذاك بأنهم خرجوا من أبحاثهم ومناقشاتهم بأنه لا أمل بحل مشاكل مصر الاقتصادية والاجتماعية حلا جذريا بسبب تفجرها السكاني إلا على مستوى عربي، وقد عين البغدادي بعد ذلك رئيسا لهذا المجلس بعد إخفاق مشروع الوحدات المجمعة ومديرية التحرير التي أنفق على إنشائها مبالغ طائلة».

«وفي الاجتماعات التي عقدها عبد الناصر مع الوزارة المركزية تقدم البغدادي بمشروع للتخطيط الإنمائي قام بوضعه ثلاثة وستون خبيراً لمضاعفة الدخل القومي خلال عشرين عاما».

«في الجلسة الأولى لاجتماع الوزارة المركزية على مستوى مجلس التخطيط قلت لعبد الناصر: «إن هذه الخطة ستصيب الشعب بخيبة أمل كبيرة، لأنه خلال عشرين عاما سيزداد عدد السكان بشكل لا يسمح برفع مستوى معيشة الشعب المصري».

«لم يخطر ببالي أبداً أن يكون رد فعل جمال عبد الناصر أن يبدل بموافقة الوزراء الأرقام التي بنيت عليها الخطة لمضاعفة الدخل القومي فيجعل المدة عشر سنوات بدلا من عشرين سنة، والذي أذهلني أن جميع الوزراء قد لبوا رغبة عبد الناصر دون تردد في تغيير الأرقام وهم الذين اشتركوا مع العدد الكبير من الخبراء في

تقديرها. قلت للبغدادي الذي كان جالسا بجانبي: ألست أنت الذي درست هذه الخطة وتقدمت بها بصفتك رئيسا لمجلس التخطيط وشارك في ذلك جميع الوزراء الحاضرين، فكيف تبدلون أرقامها التي بنيت عليها بأرقام أخرى؟».

***



نموذج الأكاذيب الضخمة التي كان عبد الناصر يرتكبها هو ونظامه :

«أقيم في الإسكندرية (١٩٥٩م) عرض للقوات المسلحة، ثم موكب شعبي في ملاعب البلدية أطلق عليه موكب الزحف المقدس، وقد لفت نظري مرور سيارة قيل : إنها من صنع المعامل المصرية » .

يجدر بنا هنا أن نتوقف هنيهة لنشير إلى أن كلمة المعامل توازي كلمة المصانع في الاستعمال المصري .

« فقلت للمشير عبد الحكيم عامر الذي كان جالسا بجانبي: إنه لأمر مفرح أن نبدأ بصناعة السيارات، فقال: إننا لم نصنع هذه السيارة، فظننت أنها قد جمعت في المعامل المصرية، ولكن المشير قال: وحتى هذا لم نتوصل إليه حتى الآن، مع أن صحف الجمهورية نشرت بأن المعامل المصرية قد بدأت بإنتاج ٣٦٠٠ سيارة».

***



قصة فرض ضريبة لصالح شركة عبود باشا :

عبد الناصر لم يكن يأخذ بالأغلبية ، فإذا عارضته ، فإنه كان يصدر قراره دون أن يأبه بقرارها السابق المعارض لقراره :

«أحيل إلينا مشروع قانون يقضي بفرض ضريبة واحد أو نصف بالمائة، لم أعد أتذكر تماما، على جميع صادرات ومستوردات إقليمي الجمهورية لصالح شركة عبود باشا للبواخر التجارية، فدارت مناقشة حادة بيني وبين الوزراء المصريين المركزيين حول هذا المشروع، وكانت حجتهم أن الجمهورية العربية المتحدة بحاجة إلى أسطول تجاري، وأن هذه الضريبة على الاستيراد والتصدير هي لصالح إنشاء الأسطول لا لصالح عبود باشا، أما أنا فقد كانت رأيي أنها لصالح عبود باشا أكبر رأسمالي مستغل في مصر، وأنني لن أوافق ، ولو قطعت يدي على فرض هذه الضريبة إلا بعد تأميم شركة عبود باشا، وكان حسين الشافعي أكبر المتحمسين لفرض هذه الضريبة، وفي نهاية الجدل قررت أكثرية أعضاء اللجنة التشريعية إلغاء هذا القرار، ولكنني علمت بعد فترة أن القرار قد نشر في الجريدة الرسمية».

***



اللجوء للتلاعب في أرقام الميزانية المصرية وتطبيق الأسلوب نفسه على سوريا :

«... ميزانية الإقليم المصري اعتادت ضم وإدراج جميع ميزانيات الإقليم الملحقة والمستقلة وجميع موازنات المؤسسات العامة، وبهذا الأسلوب ترتفع نسبة أرقام الموازنة كثيرا عن الأسلوب السابق، وقد أخذت سوريا بالأسلوب المصري عند وضع موازنتها فيما بعد بغرض الدعاية للنمو الاقتصادي الذي حققته سوريا في ظل حكم جمال عبد الناصر، الأمر الذي لا يتمكن الناس من اكتشاف زيفه وبعده عن الحقيقة والواقع».

***

٧٤

التجاوز عن التخصص في سلطات الوزارات مادام الأمر إرضاء للرئيس عبد الناصر :

«كما أحيل إلينا (في مجلس الوزراء) قرار يقضي برصد اعتمادات لبناء مساكن للوزراء المصريين تخصص لاصطيافهم في الإسكندرية، وهي من مخصصات وزارة الإصلاح الزراعي، وكان صاحب المشروع سيد مرعي وزير الإصلاح، فرفضت الموافقة على المشروع لأنه ليس من اختصاص وزارة الإصلاح الزراعي أن تبني مساكن وشاليهات للوزراء في الإسكندرية، وقد خطر لي وأنا أناقش هذا المشروع أن وزارة الإصلاح الزراعي ، هي التي تولت بناء استراحة عبد الناصر في الإسكندرية (استراحة المعمورة)».

***



عبد الناصر كان عاجزا تماما عن الإصلاح الإداري في مصر :

ثامنا: نفسية عبد الناصر:

«لقد كان عبد الناصر عاجزا عن إصلاح جهاز الدولة الإداري البيروقراطي وهياكله التنظيمية المهترئة التي خلفها النظام الملكي الفاسد؛ لأن ثورة ٢٣ من يوليو كانت انقلابا عسكريا، ولم تكن ثورة ديمقراطية حتى تتمكن من فرز قيادات جديدة تحل محل الكوادر السابقة».

***

٧٦

اكتشافه غلبة طبيعة الشك على الرئيس عبد الناصر:

«كان من عادة عبد الناصر - كما خبرته فيما بعد - أن يسيء الظن كلما لمح اثنين يتحدثان على انفراد، ولا أشك أنه قضى حياته وهو محروم من شعور الثقة بالآخرين وسيئ الظن بجميع من حوله».

***



الشك يتحكم ويحكم:

«انفعل عبد الناصر كثيراً من هذا التساؤل وقال: لنخرج إلى الحديقة، وطلب من المشير عامر أن يشاركه في لعبة الجولف، فوقفت جانبا مع الآخرين أتفرج على هذه اللعبة، وكان عبد اللطيف البغدادي يشجع عبد الحكيم عامر على سبيل المزاح فقال له عبد الناصر بين الجد والهزل:

«إياك يا عبد اللطيف أن تتفق مع المشير فأنا رجل صعب ولا قبل لكما بي».

***

٧٨

عبد الناصر يشك في تنمية عبد الحكيم عامر لعلاقته مع السوفييت:

«وكنت قبل ذلك قد سمعت أن المشير يحاول إنشاء علاقة مميزة مع السوفييت، وأن عبد الناصر يراقب هذه العلاقة بحذر شديد، ولربما كان مجيء عامر لحضور هذا الاجتماع يعود إلى هذا السبب».

٧٩

السراج يعتبر قضاء عبد الناصر على الأحزاب السياسية أعظم منجزاته :

«... ومن الجدير بالذكر في هذه المناسبة، كدلالة على العقلية التي حكمت سوريا في عهد الوحدة، أن عبد الحميد السراج قبيل هزيمة يونيو عام ١٩٦٧م بأسبوعين، كان قد صرح في القاهرة، ونقلت تصريحاته الجرائد الناصرية في بيروت، بأن أعظم منجزات عبد الناصر هي قضاؤه على الأحزاب السياسية وجعله ٤٢ مليون مصري عربا».

***



البرزاني لمس نقطة الضعف في عبد الناصر عندما قبل يده :

«كنت في القاهرة عندما زارها البرزاني في طريق عودته إلى العراق، وقد قال لي جمال عبد الناصر آنذاك عن البرزاني:

«إن هذا الرجل ليس عميلا للاتحاد السوفيتي كما يزعمون، بل إنه رجل مسلم متعصب، إنني لم أتمكن من نزع يدي من يده عندما قابلني إلا بعد أن قبلها. ترى هل كان البرزاني في تصرفه ذاك قد اكتشف نقطة الضعف عند عبد الناصر».

***



إساءة عبد الناصر معاملة الوزراء :

«وعندما رأيت أسلوب عبد الناصر في معاملة وزرائه، مر في ذهني ما قاله لي

عندما طلبت منه أن يعامل الوزراء السوريين كمعاملته للوزراء المصريين، لقد أجابني يومذاك: «لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع».

*****

الباب الثاني

مذكرات طبيب الرئيس
مشواري مع عبد الناصر

د. منصور فايز

١

إذا جاز أن يكون هناك بعد الدكتور أنور المفتي من يمكن أن يطلق عليه أنه أشهر طبيب لرئيس مصري فهو الدكتور منصور فايز الذي كان طبيبا للرئيس عبد الناصر في السنوات السبع الأخيرة من عمره ، فقد كان هذا العالم نموذجا للطبيب بمعني الكلمة . وقد جمع مع الطب مجدي الأستاذية والفكر باقتدار ، ثم واتاه الحظ أن يعيش سنوات طويلة بعد عبد الناصر لا أن يموت قبله على نحو ما حدث مع سلفه الأشهر الدكتور أنور المفتي عليهم جميعا رحمة الله .

ومع أن الرؤساء والملوك الآخرين في الزمن الذي عشناه كان لهم أطباء وكانوا يعانون من أمراض متعددة ، فإن عبد الناصر من بينهم جميعا كان الرئيس المريض بكل ما تحمله الكلمة من معان ودلالات على نحو ما نرى.

***

٢

كان الدكتور منصور فايز واحدًا من كبار أساتذة الباطنة المصريين في النصف الثاني من القرن العشرين، وقد رزق التوفيق في عمله الطبي، ورزق مكانة مرموقة في المجتمع العام، ومن مرضاه المشهورين كوكب الشرق السيدة أم كلثوم، والأديب الكبير نجيب محفوظ، وفيما قبل الثورة كان هو الطبيب المعالج لرئيس الوزراء على ماهر، وللفريق محمد حيدر القائد العام للقوات المسلحة قبل الثورة. وقد ظل يعمل بعيادته حتى وفاته.

وقد اختاره الرئيس الراحل جمال عبد الناصر (١٩٦٣) للإشراف على علاجه بعد وفاة الدكتور أنور المفتي، وتولي هذه المهمة منذ ١٩٦٣ حتى وفاة عبد

الناصر (١٩٧٠).

وفي أثناء فترة علاجه للرئيس رافق منصور فايز الرئيس عبد الناصر في معظم سفرياته خارج مصر، وكانت آخرها السفرية السرية إلى موسكو لعقد صفقة أسلحة .

وقد مارس السياسة من موقع التأمل، وظل وفيا لعبد الناصر وتوجهاته، كما أنه أبدى إعجابا بالغا بمبادرة الرئيس أنور السادات لزيارة إسرائيل وإنهاء حالة الحرب.

***



٣

ولد الدكتور منصور فايز في ١٥ من أبريل عام ١٩١٤م في مدينة المنصورة، وعاش حياته الأولى فيها مع أسرته المكونة من ثلاثة إخوة، وقد توفي والده حين كان عمره سبع سنوات، و تلقى تعليما مدنيا متميزا والتحق بكلية طب فصر العيني وتخرج فيها (١٩٣٧)، مزاملا عددا من أبرز الأطباء والجراحين، كان منهم العميد حسن على إبراهيم، وعلي مطاوع، ومحمد قناوي، والأنور أمين عبد اللطيف، ويوسف رزق الله حنا، وأنور علوي، ومحمد رجب .

حصل منصور فايز على الدكتوراه (١٩٤٠)، ومن الجدير بالذكر أن زميله الأشهر الدكتور أنور المفتي حصل عليها (١٩٤٠) أيضا، وإن كان المفتي قد تخرج قبله بعام (١٩٣٦)، وحصل منصور فايز كذلك على زمالة كلية الأطباء الملكيين بلندن (١٩٤٢) وقد أعفي من الامتحان الشفوي للشهادة لحسن أدائه.

تدرج منصور فايز في وظائف هيئة التدريس حتى أصبح أستاذا، ثم رئيسا لأقسام الأمراض الباطنة بكلية طب قصر العيني بجامعة القاهرة حتى بلغ سن

التقاعد عام ١٩٧٤م ثم عمل بعدها أستاذا متفرغا عدة سنوات.

كان الدكتور منصور فايز أول من تولى منصب رئيس الجمعية المصرية لأمراض الباطنة.

نال الدكتور منصور فايز كثيرا من التكريم ومنحه الرئيس أنور السادات وسام الدولة من الطبقة الأولى في العلوم والفنون .

كان الدكتور منصور فايز إذاً واحدا من الأطباء الباطنيين الكبار الذين أتيح لهم أن يعرفوا رؤوس الدولة عن قرب، وقد حرص على أن يشير إلى هذا المعنى في مذكراته.. وحسنا فعل!

***



أما كتاب الدكتور منصور فايز فهو كتاب وفاء في الدرجة الأولي، ذلك أن صاحبه ينحاز بإرادته الحرة إلى عبد الناصر في مواجهة كل خصومه، بل في مواجهة كل مَنْ حسبوا على عبد الناصر، واستكثر جمهور المثقفين أن يحسبوا على عبد الناصر، وذلك من قبيل رجال الاتحاد الاشتراكي (!!)

وعلى نحو ما نجد في هذا الكتاب انحياز منصور فايز إلى عبد الناصر في مواجهة عبد الحكيم عامر ومؤيديه، فإننا نجد انحيازا من نوع آخر يتعالى بعبد الناصر على تصرفات الاتحاد الاشتراكي، وينسب إلى عبد الناصر نفسه سخرية لاذعة من هذه التصرفات.

***

٥

ومع ما يحفل به هذا الكتاب من عفة اللفظ، وأدب الكلمة، ومظاهر التهذيب والرقي الواضحة في العبارات، والجمل والفقرات، فإن منصور فايز لا يزال لا يرى عبد الناصر إلا مصيبا، ولا يرى غيره إلا مخطئا، وهو يروي تاريخ ما عرفه من حياة عبد الناصر في إطار الحديث عن صواب مطلق، وخير مطلق، وجمال مطلق، وكفاح مطلق، حتى ليكاد كتاب منصور فايز يخرج من نطاق المذكرات إلى نطاق المدائح، وهو يخرج من نطاق ما يرويه طبيب صاحب مذكرات إلى نطاق ما يرويه كاتب صاحب قلم ودفاع ورؤية.

والحق أن منصور فايز لم يهدف إلا هذا حين ألف كتابه، لكنه وجد نفسه مضطرا إلى أن يسلك هذا الطريق في وسط معمعة من الانتقادات والروايات والاكتشافات والتفسيرات والتأويلات التي أحاطت بمواقف عبد الناصر ، فأحالتها إلى صورة أقرب إلى السواد المطلق منها إلى السواد النسبي، لهذا فإن مدائح كتاب منصور فايز (ولا نقول مدائح منصور فايز) تبدو في إطار المدائح الاعتذارية أكثر مما تبدو في إطار المدائح المعتادة.

وفي كل الأحوال فإن كتاب منصور فايز يدلنا على بعض ما انفرد صاحبه بروايته مما شهده وشاهده، ومما استشهد به على صواب ما رآه، أو دافع به عن رأيه.

***



٦

ومن الإنصاف أن نبدأ فنقول : إن كتاب منصور فايز يضم انفرادات مهمة عن الفترة التي سبقت عمله كطبيب للرئيس جمال عبد الناصر.

ينفرد كتاب منصور فايز أولا بالحديث عن حقيقة مشاعر الفريق محمد حيدر في نهاية عصر الملك فاروق، وكيف كانت هذه المشاعر أقرب إلى الضيق من فاروق، لا الولاء له، وهو يرجع السبب في هذا إلى الإهانات التي كان فاروق يوجهها لحيدر من دون أن يفكر في أن يكون حيدر قد استحق هذه الإهانة بسبب تقصير أو وشاية.

ويكاد منصور فايز يلمح إلى أن الفريق حيدر كان أقرب إلى التعاون مع الضباط الأحرار ولا نقول التواطؤ، وأن بعض تصرفات حيدر قد هيأت للضباط الأحرار حماية ورعاية من درجة ما كفلت لهم المضي فيما مضوا فيه.

ونحن لا ننكر على منصور فايز ما ذهب إليه، بل ربما نشير إلى أننا لفتنا النظر إلى ما يؤيد هذه الرؤية فيما أثبتناه من قبل في كتابينا «على مشارف الثورة»، و«في كواليس الملكية»، وعلى كل الأحوال فهذه هي رواية منصور فايز عن حيدر باشا:

«... ولقد أحس حيدر في الفترة الأخيرة - وكنت طبيبه الخاص - بأنه لم يعد موضع ثقة الملك، بل بدأ يستشعر المهانة من تصرفات الملك معه، وكان الأخير يعمد إلى السخرية منه أمام الآخرين، ومن ذلك أن تلقى حيدر من الملك هدية، وحين شرع في فتحها وجد أمامه صندوقا كبيرا فلما فتحه وجد بداخله آخر، واستمر هكذا يفتح صندوقا من بعد صندوق، حتى فتح الأخير فقفزت في وجهه ضفدعة كانت حبيسة فيه!».

«شعر حيدر بأن أسهم حسين سري عامر - المعروف بالشدة والصرامة - الذي كان يشغل مدير سلاح الحدود آخذة في الارتفاع عند الملك، وأنه سوف يخلفه في منصبه، وسيطر على حيدر شعور بأن الملك سوف يعمد إلى التخلص منه ولو أدى ذلك إلى اغتياله - على حد ما فهمت من حيدر، ولا عجب في ذلك، فحيدر يعلم أن الملك قد كون فريقا من الضباط أطلق عليهم اسم «الحرس الحديدي» لاغتيال

الشخصيات غير المرغوب فيها».

***



ويواصل الدكتور منصور فايز التأكيد على صحة هذه الرؤية التي توصل لها فيقول :

«وكان مما ساعد الفريق حيدر على هذا الاعتقاد (أمران) :

«الأول: أن شعبيته في الجيش أصبحت واسعة ، بل إن شعبيته تجاوزت الجيش إلى الشعب، وفي هذا المجال ذكر لي واقعة ذات دلالة حين ذهب حيدر إلى السينما يوما ليحضر عرضا من الثالثة إلى السادسة مساء، وعند خروجه من دار السينما التف حوله المدنيون في مظاهرة تهتف بحياته».

«الثاني: أن الفريق حيدرًا كان مريضا بتليف بالكبد، وعادة ما يؤثر هذا المرض على سلامة التقدير، ويؤدي إلى تضخيم الأمور في كثير من الأحيان».

«نتيجة لذلك كله لم يكن الفريق حيدر، في المرحلة التي سبقت الثورة مباشرة، متحمسا للملك، فقد حدث أن استدعى إبراهيم عبد الهادي - وكان رئيسا للوزراء - جمال عبد الناصر وسأله عن تنظيم الضباط الأحرار وعلاقته به، لكن حيدر طمأن إبراهيم عبد الهادي وأبعد أي شبهة عن جمال عبد الناصر».

«يضاف إلى ذلك أن الفريق حيدر لم يعط لسقوط مرشح الملك في انتخابات نادي ضباط الجيش أي أهمية برغم دلالات هذا الحدث الكبير، وما كان يفترضه من إحكام السلطة للرقابة على الجيش والضباط».

***

٨

ويصل منصور فايز إلى التصريح بما كان يعتقده في هذه الجزئية ، راويا بعض الشواهد أو الدلائل على صحة ما يقول:

«... ومجمل القول إنه ربما كان لتراخي حيدر أثناء الفترة التي سبقت قيام الثورة أثره في سرعة نجاحها، وعدم الكشف المسبق عن تنظيم الضباط الأحرار».

«... ولقد روي لي الفريق حيدر بعد قيام الثورة أنه كان يعرف جمال عبد الناصر، وصلاح سالم جيدا، وأنهما كانا من الضباط الأكفاء، وأن الأخير قد عمل بمكتبه لفترة قبل الثورة، بل لقد زاد على ذلك في مرة أنه كان يعلم بعضويتهما في تنظيم الضباط الأحرار!».

«وبعد قيام الثورة لم تحدد إقامة الفريق حيدر كما حدث لأقطاب النظام السابق، وقد أبلغني أنه يعامل معاملة طيبة من الرئيس جمال عبد الناصر شخصيا، وأدخل مستشفى الكاتب حين مرض، ولا تجد تلك المعاملة تفسيرها في كون الفريق حيدر خال المشير عبد الحكيم عامر، فذلك لم يكن موضع اعتبار كثير من رجال الثورة والمشير عامر في مقدمتهم».

«ومن الشواهد على ذلك أنه حين أخرج زوج ابنة الفريق حيدر من وزارة الخارجية في حركة التطهير طلب مقابلة المشير عامر الذي رفض لقاءه، فالتحق بخطوط الطيران السعودية في لندن وظل موظفا بها إلى أن لقي ربه».

«وحين توفي الفرق حيدر بغيبوبة كبدية نتيجة تليف الكبد، شيع جثمانه إلى مثواه الأخير على عربة مدفع يحيط بها الجنود في جنازة عسكرية رسمية، بالرغم من أنه كان يعد من رجال الملك».

٩

ينفرد منصور فايز أيضا بالإشارة إلى موقف لمحمد على رشدي وزير العدل في وزارة على ماهر (الرابعة) تضمن الاكتشاف المبكر لموهبة جمال عبد الناصر:

«... وأذكر أني سمعت من محمد على رشدي وزير العدل في وزارة على ماهر ثناء مطولا على أحد ضباط الثورة، جاء إلى مكتبه لمناقشة بعض المسائل التي تدخل في اختصاص وزارته، وكان هذا الضابط، كما روي لي وزير العدل، محدثا ممتازا استطاع أن يقنعني بأمور عديدة، ورجاني أن أنفذ ما أستطيع مما أكون قد اقتنعت به، وكان الضابط هو جمال عبد الناصر، الذي لم يكن الوزراء في بداية عهد وزارة على ماهر قد أدركوا بعد أنه قائد الثورة».

***



ينفرد منصور فايز ثالثا بالإشارة إلى جوهر الخلاف بين على ماهر باشا وجمال عبد الناصر فيما يتعلق بمستقبل مدينة حلوان، ونكاد (على غير العادة في هذه المذكرات) نلمح في رواية منصور فايز انحيازا إلى رواية على ماهر وتفضيلا لها على رؤية جمال عبد الناصر:

«... وكان من الطبيعي أن يخص على ماهر الرئيس جمال عبد الناصر بكثير من الانتقادات فيما بعد، بحكم كل ما سلف، وبحكم موقع جمال عبد الناصر من الثورة، وأذكر من بين هذه الانتقادات ما كان يتعلق بموقف عبد الناصر من منطقة حلوان».

«كان على ماهر - كما بيّن لي - مقتنعا بأن حلوان بحكم موقعها وبمياهها المعدنية

يجب أن تكون قرية سياحية، في حين كان جمال عبد الناصر مقتنعا بأن حلوان هي المستقبل لمجمع صناعي ضخم».

«كان تعارض الأفكار جليا، وكان تناقض الانتماءات الاجتماعية واضحا، كان على ماهر يرى في حلوان مكانا هادئا يفد إليه القادرون أثناء فصل الشتاء طلبا للاستشفاء والراحة، وكان جمال عبد الناصر يرى فيها موقعا لصناعات جديدة، وفرص عمل، وحياة كريمة لمئات من العائلات المصرية».

«وليس في نيتي الترجيح بين وجهتي النظر، فليس ذلك قصدي، وإنما أردت أن أوضح قدر الاختلاف في الرؤية، وفي التفكير، وفي نقاط الاقتراب من المشكلات».

***

١١

وينفرد منصور فايز رابعا بالإشارة إلى أن علاقة عبد الناصر برجال الحكم فيما قبل الثورة كانت أوثق من علاقة الرئيس محمد نجيب بهؤلاء الزعماء، وأن عبد الناصر كان أكثر سعيا إلى التودد إلى هؤلاء والتقرب منهم في ظل صراعه الخفي مع الرئيس محمد نجيب:

«... وما أتيح لي أي أن أرى جمال عبد الناصر قبل ذلك إلا مرة واحدة، وفي عجالة، في أوائل أيام الثورة، فقد حدث أن ذهب جمال عبد الناصر لزيارة المرحوم حفني محمود أثناء مرضه، وبصحبته عبد الحكيم عامر، وكان حفني محمود من رجال السياسة البارزين، ومن أعز أصدقاء حيدر باشا، وتصادف وجودي هناك أثناء الزيارة، فسلمت على الزائرين لدى وصولهما وانصرفت، وأذكر أن المرحوم حفني محمود كان ممتنا لسؤال عبد الناصر عنه، وقال لي بعدها: «تصور أن يحضر جمال عبد الناصر لزيارتي حين علم بوعكتي بمجرد رجوعه من برج العرب، بينما لم

يكلف محمد نجيب نفسه عناء الحضور وهو الذي كان في القاهرة!».

***

١٢

ونبدأ بعد هذه المقدمات المهمة في استعراض الحديث المباشر لذكريات صاحب الكتاب عن عبد الناصر وعهد عبد الناصر .

يشير منصور فايز إلى طبيعة العلاقة الإنسانية التي ربطته بجمال عبد الناصر في عبارة قصيرة مكثفة ودالة:

«... وخلال السنوات التي عرفت فيها جمال عبد الناصر من قرب، وجدته إنسانا متواضعا حلو الاستقبال، وكان دائما سريع البديهة، قوي الملاحظة، مرح الروح مهما كانت التحديات التي تشغل باله. كان يتحدث معي قبل الكشف عليه حديثا عاما، فإما أن يحكي عن بعض مشاغله فكنت أستمع لما يشاء روايته، أو أن يسأل عن بعض الأمور التي تهمه».

«خلال السنوات الطوال نشأت بين الرئيس جمال عبد الناصر وبيني تلك العلاقة الحميمة التي تميز دائما علاقة الإنسان بطبيبه، فالطبيب يرتبط دائما بالصحة، وهو الذي يعود الشخص إذا مرض، هو الذي ـ من بعد الله ـ يشفى ويطيب».

***

١٣

ويصور منصور فايز علاقة عبد الناصر بأولاده تصويرا موحيا:

«... وكان جمال عبد الناصر شديد الحب لأولاده.. (حريصاً) على أن يراعي مشاعرهم، وأذكر أنه كان مريضا في الوقت الذي وضعت فيه كريمته السيدة منى

مولودها «جمال» في مستشفي الدكتور علي إبراهيم، فاتصل بالمستشفي وطلب تأجيل خروجها لمدة يومين لحين شفائه حتى يزورها في المستشفي، ويظهر معها في الصورة على غرار ما فعل مع ابنته السيد «هدى» حين وضعت ابنتها «هالة».

***

١٤

يلخص منصور فايز التاريخ المرضي للرئيس عبد الناصر على نحو دقيق لم يُسبق إليه ولم يلحق، وهو يفعل هذا أيضا في التاريخ العلاجي للرئيس:

«كان الرئيس جمال عبد الناصر يعاني من مرض السكر منذ عام ١٩٥٨، ولم يظهر عليه أي مضاعفات لهذا المرض منذ ذلك التاريخ وحتى ١٩٦٨م، وانحصرت المضاعفات حينذاك في آلام الساق التي بدأ يشعر بها على النحو الذي سيرد في حينه، وكان مرض السكر وراثيا في عائلته، فقد كان له أخ مريض بالسكر، وكذا كان عمه».

«... وكان علاج السكر عند جمال عبد الناصر يعتمد على حقن الأنسولين حيث كانت العقاقير التي تُعطى عن طريق الفم غير مجدية في علاجه، فكان عليه أن يأخذ حقنة أنسولين طويلة المفعول يوميا قبل الإفطار».

«كان يشترك معنا في علاج الرئيس عبد الناصر الدكتور بولسون من الدنمارك، وهو من أكبر إخصائي السكر في العالم، وكان يعود الرئيس مرة كل ستة أشهر، أو إذا دعت الحاجة، وكان الدكتور بولسون من أشد المعجبين بشخصية الرئيس جمال عبد الناصر، وكان دائم الإشادة به كزعيم عالمي، وكان يأتي متطوعا رافضا أي أتعاب».

«ومن آن لآخر كان يزور الرئيس أيضا الدكتور فيفر من ألمانيا الغربية، وهو

إخصائي شهير في مرض السكر».

❊❊❊



ويتطرق الدكتور منصور فايز إلى مشكلتين مرضيتين أخريين لم تعرفا بوضوح في حياة عبد الناصر:

«... وكان الرئيس يشكو من حساسية بالجيوب الأنفية، وكان يعالجه من ذلك الأستاذ الدكتور على المفتي، الذي ظل يشرف على علاجه حتى رحيله عام ١٩٧٠».

« كما كان يشكو من تمدد في الشعب الهوائية بالرئة اليمني، مما كان يسبب له متاعب كثيرة حيث إن أي التهاب بالجيوب الأنفية يمكن أن ينتقل بسرعة إلى الشعب والرئة مسببا له نزلات شعبية، وأحيانا التهابا بالرئة، خاصة أنه معروف أن مرض السكر يقلل من مقاومة هذه النزلات».

❊❊❊



وهو يردف هذا الحديث مباشرة بالحديث عن التزام عبد الناصر بتعليمات الأطباء و عن معاناة عبد الناصر من التدخين ثم توقفه عنه :

«... وكان جمال عبد الناصر مريضا مطيعا يؤمن بأهمية الالتزام بإرشادات الطبيب قدر ما يستطيع، ومن الطريف أنه كان لا يحب أن يرى منظر الدم، وكان يدير وجهه عند أخذ عينة دم منه».

«... وكان يدخن بكثرة سجاير «كرافن» بدون فلتر، ثم سجاير «كنت»، وقد

حاولنا مرارا منعه من التدخين دون جدوى، وكان يقول: «قد أصبحت السجاير هوايتي الوحيدة المتبقية، فهل ستحرمونني منها أيضا؟!».

«ولكن في ١٩٦٨م حين بدأ يشعر بآلام الساق نتيجة قصور في الدورة الدموية طلبنا منه ضرورة التوقف عن التدخين كما طلب منه الأطباء الروس ذلك، وامتدت يد جمال عبد الناصر بالسيجارة المشتعلة في يده إلى المنضدة بجانبه ، وأطفأ سيجارته، ولم يعد إلى التدخين أبدا بعدها».

***



ونأتي إلى أهم ما تضمنته الأحداث التاريخية التي قدر لمنصور فايز أن يشهدها مع الرئيس عبد الناصر، وفي مقدمة هذه الأحداث بالطبع هزيمة ١٩٦٧م ، ومن حسن الحظ أن منصور فايز لم يبخل علينا بتصوير موقف عبد الناصر صباح يوم الهزيمة:

«... كنت على موعد مع الرئيس جمال عبد الناصر في صباح يوم الاثنين ٥ من يونيو ١٩٦٧م ، وكان عادة يطلبني للدخول عنده في حوالي الساعة التاسعة والنصف صباحا يرافقني الدكتور أحمد ثروت، وكنت عادة أذهب في حوالي الساعة التاسعة صباحا إلى مكتب السيد محمد أحمد السكرتير الخاص للرئيس إلى أن يستدعيني جمال عبد الناصر».

«ذهبت في ذلك اليوم في الثامنة والنصف صباحا وفوجئت بالرئيس يستدعيني بمجرد وصولي، ولم يكن الدكتور ثروت قد وصل بعد، وحين صعدت إليه أبلغني أنه لم ينم جيدا في الليلة الماضية، وأنه يستيقظ مبكرا جدا وكان يبدو مشغول البال، وفجأة قبل توقيع الكشف عليه سمعنا صوت صفارات الإنذار، وكان الوقت يشير إلى التاسعة صباحا».

«اتصل عبد الناصر بالتليفون وعلم أن إسرائيل بدأت الهجوم، وكان هذا أول علم له عن بدء قيام الحرب بين إسرائيل وبيننا، ولاحظت على الفور الجدية والصرامة التي كست وجه عبد الناصر الذي اعتذر عن إتمام المقابلة والكشف عليه، وقام ليرتدي ملابسه على عجل شديد».

***



وها هو منصور فايز يروي قصة إصابة عبد الناصر بالقلب في موضع متأخر من كتابه يقول:

«وفي ٩ من سبتمبر كان الرئيس مع وزير الحربية ورئيس الأركان ورؤساء الهيئات في القيادة العامة يتابعون أداء فرقة مدرعة حديثة الإنشاء».

«وحدث في ذلك اليوم أن أغارت إسرائيل على منطقة الزعفرانة وهاجمت نقطة خفر السواحل وقتلت خمسة جنود وبعض المدنيين ... ».

«وكان تأثر عبد الناصر بهذا الحادث بالغا، خاصة بالنظر إلى ضحايا الحادث، وقد قال لي في صباح اليوم التالي وصوته يقطر ألما: «المدنيين ذنبهم إيه؟ ورجال خفر السواحل دول ناس فوق الخمسين، والمحارب الشريف لا يقوم بعمل بهذه الخسة».

«عقب ذلك مباشرة وفي ليل ذات اليوم أصيب جمال عبد الناصر بالأزمة القلبية الأولى، وأثبت الفحص الإكلينيكي ورسومات القلب المتكررة حدوث جلطة (يقصد « احتشاء») بالشريان التاجي للقلب، اتصلنا بالدكتور ناصح أمين لعمل التحاليل اللازمة التي أكدت حدوث الجلطة (يقصد « الاحتشاء») وقمنا بالعلاج اللازم».

«في البداية قلت له: إن هناك تقلصات في الشرايين نتيجة الإرهاق الشديد، وإنه

يحتاج للراحة، وكان أول سؤال له هو: «يعني إيه راحة»؟ «قد إيه يعني؟»، فأجبته: «مش لمدة طويلة وكل شيء سينتهي بأمان بإذن الله» ، وفهم عبد الناصر أن قلبه قد أصيب».

«وحين طلبت منه إشراك أحد أساتذة القلب بجامعة القاهرة معنا رفض بطريقة قاطعة، وقال: «مش لازم أي حد يعرف أني مريض بالقلب»، «أنا داخل على فترة مهمة السنة الجاية في المواجهة مع إسرائيل».

«فلما اقترحت عليه إشراك الأستاذ الدكتور محمود صلاح الدين من الإسكندرية وهو إخصائي في القلب وافق على أساس أنه كان كثير التردد عليه ومضمون كتمانه لطبيعة مرض الرئيس» .

***



١٩

على أن الأمور سرعان ما حسمت بإشراك أستاذنا الكبير الدكتور زكي الرملي أستاذ القلب الأشهر ، ومن باب الطرافة فإنه في الوقت ذاته زوج ابنة الدكتور محمود صلاح الدين (و إن كان الدكتور منصور لا يشير إلى هذا بالطبع)عليهم جميعا رحمة الله :

«... وفيما بعد وافق عبد الناصر على إشراك الدكتور زكي الرملي أستاذ أمراض القلب بجامعة القاهرة معنا في العلاج».

«وعاد عبد الناصر ليؤكد علينا عدم إذاعة حقيقة مرضه، وبالفعل نشرت جريدة الأهرام أن الرئيس قد اعتكف لبضعة أيام لإصابته بالإنفلونزا ويشرف على علاجه الدكتور منصور فايز، والدكتور الصاوي حبيب، وأضيف اسم الدكتور على المفتي، وهو طبيب الرئيس للأنف والأذن والحنجرة، لتأكيد ذلك».

«وخلال هذه الأزمة كنت أزور الرئيس مرتين يوميا، وكان الدكتور محمود صلاح الدين يزوره صباح كل يوم».

«وطلبت منه أن نستشير أحد إخصائي أمراض القلب في الولايات المتحدة أو بريطانيا، لكنه رفض من جديد خشية أن يعرف الإسرائيليون أنه مريض بالقلب، لكنه وافق على حضور الدكتور شيزوف وهو أكبر إخصائي القلب في الاتحاد السوفيتي، وكان عضوا في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، وأرجح أن الدكتور شيزوف قد أعلم القادة السوفيت لدى عودته بطبيعة مرض الرئيس».

«واستجاب الرئيس لطلبنا منه بالتزام الراحة لفترات امتدت لمدة شهرين، واتفقنا على ألا يزاول أي عمل خلال هذه المدة، وإن كان دائم السؤال عن سبب إصرارنا على الراحة رغم أننا أخبرناه بوجود جلطة (احتشاء) في الشريان التاجي».

***

٢٠

ربما نتوقف دقيقة واحدة لنلفت نظر القارئ إلى هذا النقد الساخر والعابر الذي يدلي به مثقف طبيب حول ما كان يشاهده في تلفزيون بلاده ! وكيف تحسن الأداء لسبب قاهر.

« وكان جمال عبد الناصر يروح عن نفسه خلال هذه الفترة بمشاهدة برامج التليفزيون، وقد لاحظنا تحسنا كبيرا في برامج التليفزيون أثناء هذه الفترة، وسرعان ما رجع الحال إلى ما كان عليه حين عاد الرئيس إلى نشاطه ! »

«كانت الزيارة ممنوعة أثناء فترة الراحة، وبدأ الكثيرون ينتابهم الشك في طبيعة مرض الرئيس، فقد كانت الإجراءات التي اتخذت لا تشير إلى أنه كان مريضا بالإنفلونزا مثل طول فترة الراحة، وتركيب مصعد في منزل الرئيس خلال مدة

الراحة، ويبدأ بعض المسؤولين الذين أقابلهم يسألني إن كان الرئيس يتناول الهيبارين (وهو دواء يعطي في علاج الجلطة) في محاولة منهم للوصول إلى طبيعة مرضه، وعندما طالت مدة اعتكاف الرئيس عرف أنه مريض بالقلب بالرغم من التكتم الشديد».

***



ويميل منصور فايز إلى الإشادة القصوى بنجاح عبد الناصر في إشراك السوفيت في إعادة بناء قواتنا المسلحة. ويكاد رأيه هذا يستمد مقوماته من الطبّ لا من السياسة .

وهو يرى في هذه المشاركة عنصر ردع تكفل بإيقاف الغارات الإسرائيلية على العمق المصري، وهو رأي يكاد منصور فايز ينفرد به بين مَنْ كتبوا مذكراتهم، وإن كان الشعب المصري في مجموعه يميل إليه ويتبناه مع أن الساسة والدبلوماسيين يتحرجون من أن يصرحوا به على نحو ما صرح به منصور فايز لإدراكهم ما يعنيه مثل هذا التصريح قانونياً ودوليا :

«... وكان الإنجاز الذي تم خلال هذه الرحلة أبرع ما قام به الرئيس عبد الناصر منذ بدء عمليات إعادة البناء، فلقد كانت نوعية الدعم بالمعدات التي لم تخرج من حدود دول الكتلة الشرقية، وتواجد الطيارين والأطقم السوفيتية في مصر ردعا للولايات المتحدة وإسرائيل، واضطرت واشنطن أن تعيد حساباتها لأن الاتحاد السوفيتي أصبح يشارك فعليا في المواجهة العسكرية».

"وحدث بعد ذلك أن كانت الطائرات الإسرائيلية في الطريق لعمليات ضد الجبهة المصرية حين التقط طياروها حديثا بالروسية بين اثنين من الطيارين في

المقاتلات التي خرجت لمواجهتهم، فعادوا إلى قواعدهم على الفور ولم يحاولوا الاشتباك معهم، وبعدها قرر موشي ديان عدم التعرض للعمق المصري».

«وهكذا نجح جمال عبد الناصر في وقف الغارات الإسرائيلية في العمق المصري، وكانت الحكومة الأمريكية قد هددت بأن هذه الغارات سوف تستمر وتتزايد بصورة أكثر لتشمل الأهداف الاقتصادية المصرية».

❋❋❋



ويتفرد منصور فايز أيضا برواية خيبة أمل عبد الناصر في وسائل الإعلام المصرية التي لم تستطع الوقوف إلى جانب عبد الناصر عندما هاجمه الإعلام العربي عقب قبوله معاهدة روجرز في يوليو ١٩٧٠م. لكن منصور فايز (بذكاء شديد) يتجاهل أن محمد حسنين هيكل كان هو نفسه وزير الإعلام (الإرشاد القومي) في ذلك الوقت:

«... وفي ٢٣ من يوليو ١٩٧٠م أعلن الرئيس جمال عبد الناصر قبوله مبادرة روجرز في خطابه بمناسبة أعياد الثورة، وفي الخطاب ذاته أعلن عن انتهاء العمل في السد العالي الذي كان بالنسبة له يعني الكثير، وبالنسبة لشعب مصر يجسد الكفاح وقبول التحدي».

«وخرجت بعض الصحف العربية تهاجم مصر لقبولها المبادرة، غير واعية لأسباب قبولها، وهو عزم جمال عبد الناصر على تحريك الصواريخ! ».

«وكان الرئيس عبد الناصر مستاء من موقف الصحف وأجهزة الإعلام المصرية التي لم تواجه هذا الهجوم بذكاء، وقد (شكا) لي من ذلك».

٢٣

ويلخص منصور فايز صعود أنور السادات في نهاية عهد عبد الناصر تفسيرا طبيعيا حيث يقول:

«... وبعد اختفاء عبد الحكيم من حياة جمال عبد الناصر لم يبق إلى جواره سوى أنور السادات، وحسين الشافعي، وعلي صبري، وكان أنور السادات أقربهم إلى جمال عبد الناصر».

«وكان أنور السادات شديد الاهتمام بالحالة الصحية لجمال عبد الناصر، وكثيرا ما كان جمال عبد الناصر يطلعني على أدوية أشار عليه أنور السادات باستعمالها».

«وأذكر حينما كنا في طرابلس أن قال لي جمال عبد الناصر : (شوف بقي اللي حيجرا لك من أنور لما ترجع مصر)، ولما سألته عن السبب قال لي: «أنور لاحظ في الصورة أنني لم أكن مرتديا البالطو، وكان الجو باردا وقال: بس لما أشوف الدكتور منصور».





ويتحدث منصور فايز بتركيز عن علاقته بصلاح نصر، وعن رأيه في شخصية صلاح نصر، ونكاد نلمح من عبارات منصور فايز أن صلاح نصر كان ممن زكوه لعلاج عبد الناصر، فقد كان منصور فايز طبيبا معالجا لصلاح نصر قبل أن يصبح كذلك بالنسبة لعبد الناصر، وعلى حين أن منصور فايز يصف شمس بدران في كتابه بأنه كان « متكلفا وشديد الاعتداد بنفسه » ، فإننا نراه أكثر تعاطفا مع صلاح نصر، وإن كان ـ كما نتوقع ـ يؤثر جمال عبد الناصر على صلاح نصر ، ويميل إلى نصرة الأول على حساب الثاني .

وهو يروي مأساة صلاح نصر مع عبد الناصر بطريقة لا تخلو من الاندهاش، وإن كان يميل فيها إلى إلقاء المسؤولية على مَنْ رووا تورط صلاح نصر في مؤامرة المشير ضد عبد الناصر (!!)، ومن ثم فقد أصبح صلاح نصر في نظره مستحقا لغضبه، وهو الشخص الوفي لعبد الناصر وزعامة عبد الناصر :

"«.... كان صلاح نصر مديرا للمخابرات العامة، وقد بدأت معرفتي به من قبل أن يستدعيني الرئيس عبد الناصر لعلاجه، وكان صلاح نصر يشكو من ارتفاع بسيط في ضغط الدم، وكنت أذهب للكشف عليه في منزله في مصر الجديدة، أو في مكتبه في المخابرات العامة».

«كان صلاح نصر يبدو بسيطا ويميل إلى المزاح، وكم تساءلت وأنا معه: هل هذا هو حقيقة صلاح نصر الذي نسمع عنه؟ كان الاختلاف كبيرا بين ما أراه حين أزوره وبين الصورة التي تتردد عنه».

«وكان صلاح نصر كثير القراءة، ووضع بعض المؤلفات عن الحرب الاقتصادية، والحرب النفسية، وطريقة تطبيقها في مصر بعد ثورة ٢٣من يوليو، وإن لم تكن هذه المذكرات مجالا للحديث هنا».

«وبعد حرب يونيو كنت أتردد على المخابرات العامة للكشف على صلاح نصر، ولاحظت عليه عدم التفاؤل بعد الهزيمة، واشتممت من أحاديثه أنه يحاول إلقاء اللوم على الرئيس جمال عبد الناصر، وإيجاد الأعذار للمشير ورجاله ثم قال: «مفيش فايدة من الروس ولازم نتصل بالأمريكان».

«لم أعجب أن يحاول صلاح نصر إلقاء مسؤولية الهزيمة على الرئيس فقد كان من أتباع المشير عبد الحكيم عامر، ولكن ما أدهشني حقيقة هو أن يفكر مدير المخابرات العامة في الاتصال بالأمريكان بعد أن ألحقت بنا إسرائيل هذه الهزيمة وهو يعلم أن الاتصال بهم في هذه الظروف التي كانت قدرة مصر العسكرية فيها صفرا وتفوق

إسرائيل العسكري كاسحا لا يعني إلا الاستسلام».

***

٢٥

ويروي منصور فايز قصة إصابة صلاح نصر بالمرض بطريقة تنصف الرجل وتثبت له شعوره الوطني الذي لم يتحمل تصريحاً مهينا لموشي ديان :

«... وفي أحد الأيام وجدت صلاح نصر في حالة توتر عصبي شديد، واختفت الابتسامة التي كثيرا ما كانت تبدو على وجهه، وعرفت أن سبب ذلك كان حديثا صحفيا قرأه لموشي ديان، وحين سئل الأخير في الحديث: لماذا لم تدخل القاهرة بعد هزيمة يونيو؟ أجاب بوقاحة وغطرسة: كانت القاهرة تفتح لي ذراعيها، ولكني لم أدخلها حتى لا أضطر إلى إطعام ثلاثين مليون خنزير!».

«وفي صباح اليوم التالي، وكنت في مستشفي قصر العيني، وصلت سيارة من المخابرات العامة وطلبوا مني الحضور فورا لزيارة صلاح نصر في مكتبه حيث أصيب بأزمة قلبية، فذهبت في الحال فوجدته راقدا في حجرة نوم صغيرة مجاورة لمكتبه في جناح رئيس المخابرات العامة، وبالكشف عليه وجدت أنه مصاب بجلطة في الشريان التاجي للقلب، مصحوبة باضطراب في ضربات القلب، وقد جاءته هذه الأزمة كما ذكر لي نتيجة الانفعال الشديد طوال اليوم السابق إثر قراءته ذلك الحديث الذي أدلى به ديان، وقمت بعلاجه أنا والدكتور رفاعي كامل حتى أمكن السيطرة على الأزمة في المساء».

***



٢٦

ثم يروي الدكتور منصور فايز ما اكتشفه من توتر العلاقة بين صلاح نصر والرئيس عبد الناصر مظهراً دهشته الأولى :

«وبعد أن خرجت من عنده منصرفا عاد لاستدعائي وقال لي: «أنا عايز أشوف جمال عبد الناصر لأني عايز أنصحه».

«توقفت عند كلماته لحظة، وفكرت فيها طويلا، فهل يكون طلب رؤية مدير المخابرات العامة لرئيس الجمهورية عن طريقي»!!

« المفروض أن مدير المخابرات لديه القدرة على الاتصال المباشر بالرئيس، وبينهما أكثر من خط تليفوني لذلك، فهل كان الرئيس يؤجل رؤيته في هذه الفترة لسبب محدد، أو نتيجة انشغاله التام بتصفية نفوذ مجموعة المشير عامر كخطوة في سبيل إعادة البناء العسكري؟ أم ترى كان هناك ما يقلق صلاح نصر على نفسه ومركزه وجعله يطلب مني أن أنقل للرئيس رغبته في رؤيته لتردد صلاح نصر في المبادرة بالاتصال به مباشرة؟".

«ولم أفعل شيئا إزاء هذا الطلب، فقد كان السيد محمد أحمد السكرتير الخاص للرئيس قد اتصل بي تليفونيا في المخابرات العامة ليستفسر عن حالة صلاح نصر خلال علاجي له من أزمته القلبية، وأخبرني أن الرئيس سيزوره في الصباح، وبالفعل حضر جمال عبد الناصر في اليوم التالي لزيارة صلاح نصر، وكان بادي التأثر لما أصابه، ولم أعرف ماذا دار بينهما في تلك الزيارة، ولا تلك النصائح التي كان صلاح نصر يود أن يقولها له».

«وظل ترددي على صلاح نصر إلى أن تحسنت صحته، وطلبت منه بعد ذلك الراحة والابتعاد عن العمل لمدة شهرين».

***

٢٧

ثم ينفرد الدكتور منصور فايز برواية ما تنامى إلى علمه عن السبب الحقيقي في تأزم علاقة صلاح نصر بعبد الناصر :

«وفي أواخر شهر أغسطس، وبعد سقوط مجموعة المشير، تبين لجمال عبد الناصر من أقوالهم ومن مصادر أخرى أن صلاح نصر كان مشاركا في المؤامرة التي كان يدبرها المشير ضده، فتم تحديد إقامة صلاح نصر».

"وبدأت التحقيقات في المخابرات العامة لمراجعة نشاط الجهاز والوصول إلى مَنْ عساه يكون أيضا من مجموعة المشير فيه، وكشفت هذه التحقيقات جوانب خفية لنشاط الجهاز تحت قيادة صلاح نصر، وفلم يتردد جمال عبد الناصر في اتخاذ عدة قرارات لتطهير الجهاز، كما اتخذ قراره بتقديم صلاح نصر للمحاكمة إزاء ما تبين من نتائج التحقيق».

«وخلال التحقيقات طلبني صلاح نصر في منزله حيث حددت إقامته وبدأ يهاجم الرئيس ويكيل الشتائم لسامي شرف مدير مكتب الرئيس للمعلومات وهو في حالة هستيرية، ولما حاولت تهدئته قال: «أنا عايزهم يسمعوني ويحبسوني، فليس من المعقول أن يترك مدير المخابرات حرا ومعه كل أسرار جهاز المخابرات، فهو إما أن يقتل وإما أن يحبس، وأنا لا أريد أن أقتل».

«وبالفعل تم اعتقال صلاح نصر، ليس لأن لديه أسرار جهاز المخابرات العامة، فكم من رئيس لهذا الجهاز تركه إما إلى منزله أو إلى عمل آخر، وإنما كان اعتقاله إثر ما تبين في التحقيقات التي أمر بها الرئيس، ثم كانت محاكمته وسجنه تنفيذا لحكم قضائي».

«وأودع صلاح نصر سجن أبو زعبل بعد الحكم عليه، وكان يطلبني لزيارته وقد

عاودته الأزمة القلبية كثيرا، وكانت الحراسة مشددة عليه بحيث يصعب أن يتصل بأحد لإسعافه، فقدمت تقريرا طلبت فيه نقله إلى المستشفى، وبالفعل وصل هذا التقرير إلى جمال عبد الناصر الذي وافق على ما جاء فيه، وتقرر نقل صلاح نصر إلى مستشفى المعادي، لكنه رفض وقال لي: إنه يخشى على حياته في حالة دخول مستشفى المعادي، وطلب تحويله إلى مستشفي قصر العيني رغم علمه بأن الإقامة هناك غير مريحة فأجيب لطلبه».

«وحدث بعد ذلك أن كثرت عليه الأمراض، وأخذت صحته في التدهور، وتم الإفراج عنه لسوء حالته الصحية، وظل يعاني من المرض إلى أن انتقل إلى رحمة الله، وأسدل الستار على حياة صلاح نصر».

***



٢٨

ونأتي إلى الموقف الذي ظل الأساتذة الجامعيون، وبخاصة أساتذة الطب، ينسبونه إلى منصور فايز مسجلين له الفضل في حمايتهم من سياسة الدكتور عزت سلامة وزير التعليم العالي التي كانت تستهدف نشر الانضباط فيما بين أساتذة الجامعة !! مع ما يترتب على هذا الانضباط من التزامهم بالحضور والانصراف ... إلخ .

ومن العجيب أن منصور فايز ينسب إلى الرئيس عبد الناصر أنه هو نفسه الذي اختار الدكتور عزت سلامة لهذه المهمة، وأنه هو الذي أبعده أيضا عن هذه المهمة بعدما تدخل الأساتذة من طبقة منصور فايز في الاتجاه المضاد لعزت سلامة.

ومن الطريف أن نروى هنا ،أولا، ما يبسط به الأساتذة الجامعيون، وبخاصة أساتذة الطب، موقفهم من هذه القضية حين يروون مع ضحكة خفيفة أن أطباء

عبد الناصر تأخروا عليه في موعد الكشف اليومي، فلما سألهم عن سبب تأخرهم أجابوه بأنهم كانوا مضطرين إلى ذلك ليوقعوا في دفاتر الحضور والانصراف التي وضعها لهم الوزير!! فما كان من عبد الناصر إلا أن طلب من الوزير أن يكف عن هذا الانضباط (!!)

والواقع أن ما يرويه منصور فايز بكل تفصيلاته لا يكاد يخرج عن هذا المعني الذي تصوره الرواية الفولكلورية للأساتذة.

لكننا لا نستطيع أن ننكر أن منصور فايز قد أجاد عرض القضية بما يرفع من قدره ومن قدر الرئيس عبد الناصر، وبما لا يقلل أيضا من قدر الدكتور عزت سلامة وقدر الأساتذة على الجانب الآخر أيضاً :

«... كان الرئيس يتحدث معي من آن لآخر عن شؤون الجامعة بوصفي أستاذا بكلية الطب جامعة القاهرة».

«في أحد الأيام ذكر لي جمال عبد الناصر أنه علم من ابنته هدى، وكانت طالبة في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة، أن الأساتذة يصلون متأخرين عن ميعاد المحاضرة، وأحيانا لا يحضرون بتاتا دون اعتذار أو إرسال مَنْ ينوب عنهم في إلقاء المحاضرة، وفي الوقت نفسه كانت ابنته منى (ابنة عبد الناصر) الطالبة بالجامعة الأمريكية تقول : الأساتذة مواظبون على دخول المحاضرات في مواعيدها تماما، وأبدى الرئيس عدم رضاه عن الأسلوب الذي يجري به العمل في جامعة القاهرة وقال لي: «إنه سيعين الدكتور عزت سلامة وزيرا للتعليم العالي لتحقيق الانضباط في الجامعة، واحترام الأساتذة لمسؤولياتهم، وكان الدكتور عزت سلامة معروفا في ذلك الوقت بالشدة والحزم».

٢٩

وسرعان ما يستطرد الدكتور منصور فايز إلى منظور آخر ليبدي رأيه في جوهر هذا الموضوع التقليدي المتكرر :

«... وفي الواقع ولو أن اللوم يقع على بعض أعضاء هيئة التدريس لعدم مواظبتهم على الحضور، إلا أن التوسع في التعليم الجامعي، وتزايد عدد الطلبة في الكليات دون ارتباط بين الأعداد واحتياجات الدولة من الخريجين، كان السبب الرئيسي لتدهور التعليم الجامعي في رأيي، وقد سبق أن تحدثت مع الرئيس في ذلك مبديا وجهة نظري هذه بمناسبة اجتماع لمدير الجامعة بأعضاء هيئة التدريس في كلية الطب قال فيه مدير الجامعة: إن شعار جامعات الأعداد الكبيرة غير قابل للمناقشة، لكن عبد الناصر لم يقتنع بوجهة نظري وقال لي: «وإيه يعني لما يكون سوّاق التاكسي معاه ليسانس؟»».

ويستطرد الدكتور منصور فايز مرة أخرى إلى منظور ثالث لم يكتب عنه أحد (بهذا الوضوح الشاحب !!) في أسباب هذه الأزمة ، مشيرا بوضوح إلى رعونة شباب الاتحاد الاشتراكي في فرض سيطرتهم على الدكتور عبد العزيز سامي عميد الكلية مستندين إلى قرارات وزارية (!!) :

«... بدأ الدكتور عزت سلامة عقب توليه الوزارة مباشرة المهمة التي أوكلت إليه، وركز على كلية الطب بصفتها أكبر كليات جامعة القاهرة، وحدث للأسف أن تدخل الاتحاد الاشتراكي وفرض آراءه على الوزير الذي قام بإصدار قرارات متتابعة لا علاقة لها بالتكليف الصادر عن الرئيس عبد الناصر ولا بصالح العمل، وإنما كان الغرض منها إذلال أساتذة الكلية، وكان مندوبو الوزير من شباب الاتحاد الاشتراكي يدخلون مكتب العميد دون موعد سابق أو استئذان ويبلغون قرارات وزارية غير مدروسة للتنفيذ، وكان الدكتور عبد العزيز سامي عميد الكلية دائم

الشكوى من هذا الأسلوب».

«علاوة على ذلك فقد أشيع من باب التهديد في ذلك الوقت، أن النية متجهة لوضع عدد غير قليل من الأساتذة تحت الحراسة، وباختصار خرج الدكتور عزت سلامة عن الدور الذي رسمه له جمال عبد الناصر، وهو احترام الأساتذة لمواعيد الدروس والمحاضرات، وتحقيق الانضباط من هيئات التدريس في أداء واجبهم، وانزلق وراء أعضاء الاتحاد الاشتراكي، وعندما تبين لي ذلك شرحت الأمر للرئيس في إحدى المقابلات، وفي الوقت نفسه حاولت أن أتحين الفرصة المناسبة لترتيب مقابلة بين الرئيس وعميد كلية الطب ليسمع منه تفاصيل ما يجري».

«وتصادف في ذلك الوقت أن مرض الرئيس بنزلة شعبية، وطلبت منه أخذ رأي الدكتور عبد العزيز سامي أستاذ أمراض الصدر وعميد كلية الطب في مرضه، وبالفعل قام الدكتور عبد العزيز سامي بفحصه، كما قام الدكتور جمال مسعود أستاذ الأشعة ووكيل كلية طب الإسكندرية، الذي كان قد سبق له فحص الرئيس بالأشعة، بعمل أشعة للصدر».

«وبعد الكشف جلسنا في الصالون لبعض الوقت، وأثناء الحديث التفت الرئيس فجأة إلى الدكتور عبد العزيز سامي قائلا: «إيه رأيك في عزت سلامة؟ واعمل حسابك مفيش حد من الاتحاد الاشتراكي قاعد معانا».

«فلقد أحس الرئيس أن الغرض من هذا الاجتماع هو إثارة موضوع عزت سلامة، وفعلا شرح له العميد الموضوع وانتهت المقابلة».

«وأثناء الاجتماع حضر السيد زكريا محيي الدين وكان رئيسا للوزراء، لكنه لم يحضر الاجتماع ، وسلم على جمال عبد الناصر و انصرف » .

ولا يفوت الدكتور منصور فرصة الإشارة إلى تدخل « الأهرام » المعهود !! في

هذه الأزمة:

« عقب ذلك نشر «الأهرام» أن هناك أزمة ثقة بين وزير التعليم العالي وأساتذة الجامعة، وفتح باب المناقشة في هذا الموضوع، ومن أسف أن وجدت كثيرا من الأساتذة كتبوا مقالات مديح في الوزير لجهلهم بأن النشر كان تمهيدا لخروجه من الوزارة».

***



ويتصل بهذه الأزمة ما يرويه منصور فايز بتحفظ شديد عن اعتزام عبد الناصر إجراء حركة تطهير في الجامعة على نحو ما فعل في القضاء. ومن المؤسف أن يختزل منصور فايز حديثه ولا ينبئنا إلا بهذا النزر اليسير، ودون أن يشير إلى حقيقة هذا الموقف، وإلي العلاقة المحتملة لهذا الموقف بموقف عبد الناصر من الدكتورين رشوان فهمي نقيب الأطباء وأستاذ العيون ، وعثمان وهبي أستاذ أمراض النساء والتوليد:

«... وأذكر في هذا المقام ما جرى معي في موضوع خطير، وهو مشروع تطهير الجامعة، وأود أن أستميح القارئ عذرا في سرده في هذا المقام لنتبين إلى أي مدى كان الرئيس جمال عبد الناصر يستجيب للمناقشة الحادة برغم انفعاله الشخصي».

«وتبدأ وقائع هذا الموضوع معي يوم كنت أوقع فيه الكشف على الرئيس حين سألني فجأة: مش شايف إن الوقت دلوقت مناسب لإجراء حركة تطهير في الجامعة؟"، وكان من عادته إذا أراد أن يسألني سؤالا مهما أن يوجهه خلال انشغالي بالكشف عليه، وأن يفاجئني به، أجبته بقولي: طبعا».

«فاستطرد قائلا: «إنه كان هناك اجتماع في كلية الطب برئاسة الدكتور على سرور

عميد الكلية، ونوقشت أثناء هذا الاجتماع أحداث يونيو ١٩٦٧م وأسبابها، وانتقد بعض الأساتذة الرئيس، وعلق أحدهم على ما حدث بعد الهزيمة بأبيات شعر من قصيدة «كليوباترا» لشوقي:

أسمع الشعب ديون كيف يوحون إليه   أثر البهتان فيه وانطوى الزور عليه

***



ومن المدهش أن نرى عبد الناصر يكمل الأبيات معتقدا أنه لا تدل عليه، ولا تعبر عن حاله هو !! مع أنها تدل عليه بأكثر مما تدل على الموقف الذي نظمها فيه أمير الشعراء :

«وأكمل عبد الناصر الأبيات في هدوء، ثم قال بعد أن سكت ورنة غضب عميق تفصح ما يجول في صدره: «أنا ينقال على كده؟»، واستطرد أن لديه تفاصيل المناقشات التي جرت، وأنه قرر إنهاء خدمة ثلاثة من الأساتذة الذين حضروا الاجتماع، وكذا العميد الذي لم يكن حازما معهم».

«قلت له: «أنا لا أدافع عن هؤلاء الأساتذة، ولكن ما بدر منهم يعتبر تصرفا جماعيا غير مدبر تحت ضغط انفعال مؤقت، أما الذين يدبرون في الخفاء فهم لا يتكلمون، وهم أولى بالتطهير من غيرهم».

«فنظر الرئيس إليّ مليا وسألني: «مَنْ هؤلاء؟» فأجبته: لست أدري، فهم غير معروفين».

«وفي اليوم التالي سألته عما ينوي اتخاذه من إجراء مع هؤلاء الأساتذة فأجابني: «لم أقرر بعد»، وشعرت أنه قد أمعنت التفكير في الرأي الذي أبديته بالأمس، وأنه صار مقتنعا به، فاستطردت: «إذا عفوت عنهم فلأن قلبك كبير، وقد سمعنا عن

عفوك حتى على مَنْ دبروا مؤتمرات ضدك».

«واقتنع، ومن بعدها لم تثر من جديد قضية تطهير الجامعة».

***

٣٢

ونأتي إلى الطرائف الموحية في مواقف الرئيس جمال عبد الناصر :

هذا هو ما يرويه منصور فايز عن رأي عبد الناصر السلبي جداً في الاتحاد الاشتراكي:

«... وأذكر من تعليقات جمال عبد الناصر على أسلوب الاتحاد الاشتراكي في الممارسة حين كنا جالسين في شرفة استراحة القناطر وسمعنا شخصا يتحدث في الميكروفون بصوت عال، ولما سألت عن مَنْ يكون هذا الشخص، رد الرئيس بسرعة: «لازم واحد من بتوع الاتحاد الاشتراكي!»، وساد الصمت ولم يعلق أي من الحاضرين».

«كما أذكر أن حكيت لجمال عبد الناصر مرة عن فيلم كوميدي شاهدته في التليفزيون قام ببطولته حسن مصطفي وتضمن تهكما على الاتحاد الاشتراكي، فلم يغضب الرئيس من عرض الفيلم، وإنما قال مبتسما بهدوء: «خسارة أنني لم أشاهد هذا الفيلم».

***

٣٣

وهذه بعض المواقف السياسية و المهنية التي تضمنها كتاب منصور فايز عن بعض أعلامنا:

يروي منصور فايز موقف للسيدة الفنانة أم كلثوم قبل حرب ١٩٦٧ وانفعالها وتوقعها الأكيد لتحقق النصر :

«... وأذكر أن انفعال السيدة أم كلثوم بالموقف كان غامرا ومشاركة منها بما يجري حولها أعلنت أنها ستقيم حفلها الشهري التالي في «تل أبيب»، وكان من عادة السيدة أم كلثوم أن تقيم حفلا غنائيا في اليوم الأول من كل شهر» .

«وبعد أن وضعت الحرب أوزارها وجه موشي ديان من خلال الإذاعة الإسرائيلية الدعوة لأم كلثوم بالحضور إلى تل أبيب لإقامة حفلها الشهري هناك حسب وعدها».





وبعد مائة وثلاثين صفحة يصور منصور فايز علاقة السيدة أم كلثوم بعبد الناصر تصويرا متميزا:

«... كان حريصا على سماع السيدة أم كلثوم التي كان يقدرها، ويسألني دائما عن صحتها، وحين بدأت السيدة أم كلثوم تشعر ببعض التعب في إحدى المراحل، طلب مني أن أقترح عليها أن تكتفي بأغنيتين في الحفلة الواحدة بدلا من ثلاث، ولما عرضت عليها وافقت وألغت الوصلة الثالثة، وكنت قد طلبت منها ذلك من قبل ولم تستجب لي».

***



وهو يروي موقف الأطباء من التعاطف مع البطل النقيب أحمد شاكر الذي أغرق إيلات ، وحرصهم على تكريمه بإتاحة الفرصة له للعلاج رغم علمهم بأنه لا أمل في شفائه :

« ... صدرت الأوامر بالتعرض للمدمرة وإغراقها وخرج زورق الطوربيد الأول بقيادة النقيب أحمد شاكر وتلاه الثاني بقيادة النقيب لطفي جاد الله وبالفعل تمكن النقيب أحمد شاكر من المدمرة ، فأطلق عليها أول صواريخه ليصيبها إصابة مباشرة لتميل على جانبها ، فعاجلها بالصاروخ الثاني ، وبعدها بساعتين أطلق النقيب لطفي جاد الله صاروخيه عليها ، ليكمل رحلتها إلى أعماق البحر بطاقمها العسكري المكون من ٢٥٠ ضابطا وجنديًا .

« وكان لهذا الإنجاز العسكري الكبير أثره الضخم على الشعب والقوات المسلحة حتى إن يوم ٢١ من أكتوبر ، وهو اليوم الذي تم فيه إغراق المدمرة إيلات أصبح عيدا للبحرية ».

« واستدعيت في ذات يوم إلى مستشفى المعادي لحضور (قومسيون) عسكري لتوقيع الكشف الطبي علي أحد الضباط ، وكان هو النقيب أحمد شاكر الذي كان يشكو من مرض خطير في النخاع الشوكي ، لا أمل في شفائه، وكان قد تقدم بطلب للسفر إلى الخارج للعلاج ، ووجدت النقيب أحمد شاكر هادئا يعكس وجهه الارتياح بعد أن أدى واجبه نحو وطنه على أحسن ما يكون ، وبرغم أن اللوائح كانت تقف عائقا أمام سفره لعدم جدوى العلاج في الخارج فلقد قررنا سفره مقدرين أن ذلك هو أقل ما نملكه إزاء هذا البطل الذي رفع اسم مصر عاليا في

وقت من أصعب الأوقات » .

***

٣٦

ويثني منصور فايز الثناء كله على السفير الروسي في القاهرة في نهاية عهد عبد الناصر دون أن يذكر أو يتذكر اسمه على الرغم من أنه عالجه أكثر من مرة ، ومن الطريف الذي لم يذكره الدكتور منصور فايز أن هذا السفير كان صديقا حميما للرئيس السادات وأنه كان سفيرا للاتحاد السوفيتي في باريس قبل أن يصبح سفيرا في القاهرة :

«... وكان السفير الروسي في القاهرة متعاونا معنا إلى أقصى درجة، وبذل جهدا كبيرا لكي نحصل على كل ما طلبناه من القادة السوفيت، ومما ساعد على ذلك أنه كان عضوا في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي».

«وحين مرض السفير الروسي في نوفمبر ١٩٦٩م كان جمال عبد الناصر شديد الاهتمام به، فقد استدعاني لمقابلته ظهرا رغم أنني كنت في زيارته في صباح اليوم نفسه، وطلب مني زيارة السفير السوفيتي ؛ لأنه مريض، وقد قام الأطباء السوفييت بعلاجه لكنه لم يتحسن وقال:

«أرجو أن تفعل ما في وسعك ؛ لأن السفير مهم جدا لنا ونحن في أشد الحاجة إلى في ذلك الوقت».

«ذهبت إلى السفير فوجدته يعاني من مغص مراري شديد مصحوب باحتباس في الصفراء، وكانت حالته العامة غير مطمئنة».

«أجريت له (كونسلتو) بناء على طلب الرئيس، وبعثت في طلب الدكتور ناصح أمين لعمل التحليلات اللازمة، وكنت أعوده مرتين في اليوم صباحا ومساء،

وأمكن السيطرة على الأزمة بعد أسبوع، وكان الرئيس دائم السؤال عن حالته».

«وبعد انتهاء الأزمة طلبت فحص المرارة بالأشعة بمعرفة الدكتور محمد عبد الوهاب أستاذ الأشعة بجامعة القاهرة، ووجدنا أن المرارة سليمة وخالية من الحصوات، وكنت آمل أن نجد حصوات لأن البديل كان مزعجا» .

«وحين سافرنا إلى موسكو عقب الغارة الإسرائيلية على أبو زعبل رافقنا السفير فطلبت منه أن يتخلف هناك ، ويدخل المستشفي لإجراء المزيد من البحوث لمعرفة سبب المرض، وأخبرته باحتمال التدخل الجراحي».

«ولكن عند عودتنا إلى القاهرة وجدته معنا على الطائرة، وذكر لي أنه سيعود ثانية إلى موسكو، فكررت طلبي بضرورة دخوله المستشفي».

«سافرت بعد ذلك إلى باريس في مهمة علمية لمدة خمسة عشر يوما، وخلال تلك الفترة عاودت السفير الأزمة ودخل مستشفي المعادي ، وتقرر سفره إلى موسكو، وهناك أجريت له عملية جراحية اتضح أثناءها وجود مرض خبيث، وتوفي بعد أيام من إجراء الجراحة» .

***


٣٧

وفي النهاية نصل مع منصور فايز إلى ما يرويه عما شهده من نهاية حياة عبد الناصر :

«دخلت حجرة الرئيس فوجدته راقدا على سريره مرتديا البيجامة. كان يبدو عليه الإرهاق الشديد، وكان متعبا من ضربات القلب، ولكنه كان رابط الجأش، لا تبدو عليه أية أعراض للقلق».

«بادرني مبتسما حين رآني: «إزاي عرفوا يجيبوك دلوقت؟»».

«ثم استطرد مشيرا إلى الأسبوع الذي قضاه في مؤتمر القمة في الهيلتون "الحقيقة أنهم تعبوني جدا في الأيام اللي فاتت».

«قمنا بفحص الرئيس واطلعنا على رسومات القلب التي أجريت له على الفور، واتضح لنا من الفحص الإكلينيكي الذي وقعه كلا منا، وكذا من دراسة الرسومات الكهربائية للقلب، أن الرئيس جمال عبد الناصر قد أصيب بجلطة حديثة في الشريان التاجي للقلب مصحوبة باضطراب في ضربات القلب، واستمر العلاج المركز، وكان جمال عبد الناصر قد أصيب بجلطة في الشريان التاجي في ١١ من سبتمبر من العام الماضي كما سبق أن أوردت».

«كنا - فريق الأطباء - نخرج وندخل كثيرا بين غرفة نومه وبين حجرة مكتبه الملاصقة حيث كنا نحتفظ بجميع الأجهزة والاستعدادات لعلاج جلطة الشريان التاجي إثر إصابته بالنوبة الأولى قبل عام».

«كانت وجوهنا جادة تعكس التفكير والتركيز، بينما ظل جمال عبد الناصر على هدوئه، مسيطرا على أعصابه».

«لم يسألني : ما الخبر؟ ولم يستفسر عما أصابه، فلقد كان يعرف.. وأظنه أراد أن يفسح لنا المجال لنؤدي واجبنا دون أسئلة منه».

«لكني أذكر أنه قال لي وأنا منهمك في علاجه: «أنا مش حارقد المرة دي.. أنا عندي مواعيد وشغل كتير الفترة اللي جاية».. «قالها وجهاز رسم القلب لم يزل متصلا بذراعيه وساقيه».

«وفي تمام الساعة الخامسة مد جمال عبد الناصر يده إلى جهاز الراديو بجانب سريره واستمع إلى موجز نشرة الأخبار من إذاعة القاهرة وقال: «مافيش حاجة»، ثم طلب قفل الراديو ، واستطرد: «نيكسون كان عامل لي مظاهرة في نابولي، وكنت

عايز أعرف إيه الأخبار».

«وكان نيكسون قد حضر بنفسه إلى نابولي لحضور مناورة تقوم بها أقوى قطع الأسطول السادس (الأمريكي)، وذلك من باب التهديد لجمال عبد الناصر».

«وفي الوقت نفسه كان جمال عبد الناصر يريد أن يعرف ردود الفعل الخارجية لمؤتمر الهيلتون، وكان قد سأل وزير الإعلام عن ذلك من قبل».

«تحسنت ضربات القلب، وقال جمال عبد الناصر: «الحمد لله.. أنا دلوقت استريحت».

«وكانت تلك هي آخر كلماته».

«فما هي إلا لحظات وتوقف القلب فجأة».

*****

الباب الثالث

ذكريات صلاح
الشاهد عن عهد الثورة

١

كان صلاح الشاهد واحدا من أبرز الذين تعاونوا مع حكومات الثورة على نحو ما تعاملوا مع حكومات نهاية عهد الملكية ، وليس المقصود من مثل هذه العبارة أنه كان كفاءة نادرة لا بد من التعاون معها، وليس المقصود أيضا أنه كان من ذلك النوع من البشر الذين يعيشون بلا لون ولا طعم ولا رائحة بحيث يسهل عليه التعاون مع هؤلاء وأولئك، ولكن المقصود في واقع الأمر شيئا غير هذا وذاك، وإن كان بين هذا وذاك، فقد كان صلاح الشاهد من رجال المراسم أو باللفظ الأشهر كان تشريفاتيا، وكما كان من الواجب عليه أن يتواءم مع مهنته، بصرف النظر عن الرؤساء، فقد كان من السهل عليه أن يتواءم مع مهنته بصرف النظر عنهم، ومع هذا وبحكم عوامل كثيرة نعرفها مما ننقله عنه فقد استطاع صلاح الشاهد أن يحقق النجاح والاستمرار في مهنته، وأن يستحوذ على الثقة والتقدير من رؤسائه الآخرين الذين هم في الوقت نفسه رؤساء مصر، وقد عمل الشاهد أمينا مع النحاس باشا وسري باشا وعلي ماهر باشا وأحمد نجيب الهلالي باشا والرؤساء الثلاثة محمد نجيب وجمال عبد الناصر وأنور السادات، فنال ثقتهم وتقديرهم وامتنانهم، كما كان قادرا على أن يؤثر فيهم وفي قراراتهم بالحجم الذي يمكن لرجل المراسم أو لكبير رجال المراسم أن يؤثر به في قرارات هؤلاء الكبار.

***

٢

لا أجد حرجا في أن أكرر هنا ما ذكرته من قبل من أن صلاح الشاهد نشر مذكراته في دار المعارف ، وهكذا يمكن القول بأنه لم يستهدف منها ولا بها ضجة

كبيرة، وأن حرصه على أن تصدر عن دار نشر تابعة للدولة ، يؤكد على أنه كان حريصا على أن يبتعد بها عن سوق المذكرات الرائجة في ذلك الوقت الذي نشر فيه مذكراته، ومن الإنصاف أن نشير إلى أن نشر صلاح الشاهد لمذكراته لم يثر ضجة موازية ولا مواكبة للضجيج الذي كان يواكب نشر كثير من المذكرات الأقل أهمية في ذلك الوقت، وربما حدث هذا لأن مذكرات صلاح الشاهد كانت في مجملها أقرب إلى الموضوعية منها إلى التحيز الواضح إلى اتجاه ما مهما يكن من شأنه، مع أننا لا نزال بعد مرور أربعة عقود على نشر مذكرات صلاح الشاهد نعطي اهتماما أكبر بالتحيز الواضح بأكثر مما نعطي من اهتمام لمن يجنح إلى الموضوعية أو يحاول الاتزان، وليس في هذا ما يعيب ثقافة شعبنا على المدى القصير، وإن كان فيه ما يعيبها لو استمر الأمر على هذا النحو على المدى الطويل.

***

٣

من الطريف هنا أن نشير إلى أن صداقة مبكرة (أو بالأحرى : زمالة مبكرة) كانت قد جمعت بين صلاح الشاهد وأنور السادات في شبابهما، وجمعت بينه وبين عبد الناصر روح واحدة وحرص شديد على بعض أخلاق متقاربة، أما النحاس باشا فقد كان بالنسبة لصلاح الشاهد بمثابة الأب والرائد بحكم وفديته . وبحكم اهتمام النحاس باشا وتشجيعه للسباحة (والرياضة على وجه العموم) نال الشاهد وظيفته في سلك الأمناء.

***

٤

تدارست في كتابي في كواليس الملكية ما شملته مذكرات صلاح الشاهد من حديث عما قبل ٢٣من يوليو ١٩٥٢م، ونتناول في هذا الباب من كتابنا هذا أهم ما قدمه صلاح الشاهد من مذكراته بجزءيها من ذكرياته عن عمله مع قادة الدولة في عهد الثورة، ونحن نعرف أنه استمر في عمله في رئاسة الوزارة حين تولى اللواء محمد نجيب رياسة الوزراء، وأنه بقيّ في هذا الموقع حين أصبح الرئيس جمال عبد الناصر رئيسا للوزراء، واعتذر عن عدم الانتقال مع محمد نجيب إلى رياسة الجمهورية.

واستمر عمل صلاح الشاهد مع الرئيس عبد الناصر الذي سرعان ما أصبح رئيسا للجمهورية بعد عامين من رئاسته للوزراء.

ونبدأ بأعلى نقطة في منحنى تاريخ صلاح الشاهد كرجل مراسم أو تشريفات!!، وهي النقطة التي شهدت اعتقاله في فبراير ١٩٥٤م من باب التحفظ عليه كأحد أفراد حاشية الرئيس محمد نجيب، بينما كان الرئيس محمد نجيب نفسه قد سافر إلى السودان، ويبدو لنا من مضمون رواية صلاح الشاهد في فقرات متتالية من مذكراته أنه سرعان ما انصرف عن نصرة محمد نجيب أو الولاء له، و يبدو أيضا أن السبب الحقيقي في هذا الانصراف يظهر بوضوح من جزءه من هذه التجربة المؤلمة العابرة:

«... واستمرت الظروف تتلاحق إلى منتصف فبراير سنة ١٩٥٤م، وخلال هذا الشهر أخبرني اللواء محمد نجيب ـ وكان رئيسا للجمهورية منذ إعلانها في ١٨ من يونيو سنة ١٩٥٣م ـ أنه يزمع زيارة السودان، ولكني لم أقره على هذه الزيارة بسبب عدم [ملاءمة] الظروف لها، فضحك وقال: أنت فاكر ح يعملوا فيّ زي ما عملوا في

صلاح سالم؟».

«قلت: ليه لأ؟».

«قال: أنا أمي سودانية.. وأنت عارف كويس أني سوداني».

«وسكت».

ينبغي أن نتوقف هنا لنشير إلى الحقيقة التي أشار إليها الرئيس محمد نجيب نفسه في مذكراته من أن أمه لم تكن سودانية، وإنما كانت مصرية من إقليم الغربية، وبالتحديد من قرية النحارية.

ونستأنف ما يرويه صلاح الشاهد:

«وفي يوم الخميس ٢٥ من فبراير طلب مني اللواء محمد نجيب شراء بعض الهدايا لبعض المواطنين السودانيين عند سفره في أول مارس لحضور افتتاح مجلس النواب».

«وفي فجر يوم ٢٦ من فبراير ١٩٥٤م حضر إلى منزلي اليوزباشي منصور من البوليس الحربي، وكان قبل ذلك منتدبا من بين حرس اللواء نجيب، وطرق الباب ففتحت له، واعتقدت أنه موفد من الرئيس محمد نجيب لمهمة خاصة، ورحبت به ودعوته للدخول، وجلسنا في غرفة الصالون وسألته عن سبب زيارته فأخبرني بطريقة مهذبة ودبلوماسية رائعة أنه صدر قرار بتحديد إقامتي، فذهلت من الخبر وفكرت بأن ثمة انقلابا قد وقع وأطاح بالنظام».

«وفي الساعة السادسة صباحا من يوم الجمعة ٢٦من فبراير سنة ١٩٥٤م قرأت في الصحف خبر استقالة اللواء محمد نجيب من المناصب التي كان يشغلها وأهمها رئاسة الجمهورية، لوقوع خلاف بينه وبين أعضاء مجلس قيادة الثورة، وأُعلن استمرار مجلس قيادة الثورة».

«وأذاع المجلس بيانا على المواطنين بأسباب الخلاف بينه وبين محمد نجيب، وعين البكباشي أركان حرب جمال عبد الناصر رئيسا لمجلس الوزراء».

«وظل منصب رئيس الجمهورية شاغرا».

«وقد أمضيت في منزلي ثلاثة أيام مرت كأنها ثلاثة قرون إلى أن حضر أحد ضباط البوليس الحربي الساعة السادسة والنصف مساء يوم الأحد ٢٨ من فبراير سنة ١٩٥٤م مستأذنا في رفع القوة التي كانت تتولى حراسة المنزل والتي كانت تحول دون نزول أفراد الأسرة أو الاتصال بي عن طريق زيارتي، وأخبرني أن قرار تحديد الإقامة قد انتهى».

«ومن الطريف أن أحد الجنود الذين كانوا مكلفين بحراستي رأى إحدى الشغالات في أثناء مهمته وأعجب بها وخطبها من أهلها ثم تزوجها».

***



ومع أن رواية صلاح الشاهد تدلنا على أن الأمر اقتصر على العتاب ، فإن مجمل حديثه يدلنا على أن الأثر ظل باقيا طيلة حياته :

«وعدت إلى العمل في أول مارس سنة ١٩٥٤م وطلبت مقابلة الرئيس جمال عبد الناصر بمجلس قيادة الثورة، وذلك بقصد معرفة أسباب القرار الذي صدر بتحديد إقامتي، ولكني علمت من الرئيس جمال عبد الناصر أنه لم يكن الآمر بهذا القرار، ولم أشأ أن أدخل في التفاصيل، وقلت له بالحرف الواحد:

«يا سيادة الرئيس، إنني لو كنت سيئا ، فلا يصح أن أعمل معك أو مع محمد نجيب، أما أن تحدد إقامتي ؛ لأن محمد نجيب رجل سيئ ، فهذا لا ذنب لي فيه، لأنكم جبتم واحد سيئ لأعمل معه، وأنا أعمل في موقعي هذا منذ أكثر

من ١٢ سنة، فإذا كان تحديد إقامتي هو سوء من نجيب [كذا في الأصل، ويبدو أن جملة أو أكثر قد سقطت] فأرجو تجديد الأمر بتحديد إقامتي، وضحك جمال عبد الناصر».

«وعلمت أن محمد نجيب سوف يعود من السودان إلى محطة ألماظة الجوية الساعة الثانية عشرة والثلث يوم الثلاثاء ٢من مارس».

«وطفقت أفكر حائرا بين الذهاب لاستقباله كرئيس للدولة، أو أن أبقى بمجلس الوزراء لأنني كنت أعمل تشريفاتيا لرئاسة مجلس الوزراء».

«وقد هداني الله إلى ضرورة الذهاب لاستقبال الرجل الذي عملت معه قرابة السنتين، وذهبت للقائه وقد دهشت عندما رأيت بالمطار معظم ضباط السواري يهنئوني، وصافحتهم».

«وفي الزحام هنأني اللواء عبد الحكيم عامر بدوره،وسألته عن سبب التهنئة وهل عينت وزيرا.. فضحك ونفي ذلك وقال: لأن تحديد الإقامة انتهى».

«فقلت له: يا سيادة اللواء، هذا موضوع قديم نسيته، وأنا واثق أنها غلطة من إنسان حقود لو شئتم لذكرت اسمه».

«وكانت الطائرة قد هبطت أرض المطار، وكان الاستقبال عسكريا ورسميا».

«وركب برفقة اللواء محمد نجيب اللواء عبد الحكيم عامر في طريقهما إلى قصر عابدين، وذهبت إلى القصر، وفي أثناء صعودي درج السلم صادفني الرئيس جمال عبد الناصر وباقي أعضاء مجلس قيادة الثورة، بعد اجتماعهم باللواء نجيب، ودخلت إلى اللواء نجيب مهنئا بسلامة العودة، وأنه لو كان قد التفت إلى كلامي وآثر عدم الذهاب إلى السودان ما وقع ما وقع».

***

٦

ونبدأ في تناول الشأن العام في مذكرات الشاهد عن عهد الثورة .

ينسف صلاح الشاهد في مذكراته كل الدراما الناصرية حول صفقة الأسلحة التشيكية حين يشير إشارات عابرة واثقة ، لكنها وافية ومفيدة، إلى بعض ما كان يعرفه عن الجهود الوفدية المبكرة في تسليح الجيش المصري وبخاصة من تشيكوسلوفاكيا :

«وقبل إلغاء وزارة الوفد لمعاهدة ١٩٣٦م وبداية حركة الفدائيين، كانت الوزارة قد أرسلت في سبتمبر [أي عام ١٩٥١م] بعثة برئاسة وزير الحربية والبحرية مصطفي نصرت باشا إلى أوروبا لمحاولة التعاقد مع شركات أسلحة فرنسية وبلجيكية وهولندية وسويسرية وألمانية لتسليح الجيش المصري».

«وقد كتب مصطفي نصرت باشا عدة تقارير من أوروبا أهمها التقرير الذي كتبه بتاريخ ٢٦ من أكتوبر سنة ١٩٥١م من باريس حول إنجازات البعثة المصرية في بلدان أوروبا للتعاقد على تسليح الجيش المصري».

«والثابت أن الدافع لإرسال هذه البعثة للتعاقد على تسليح الجيش المصري قبل إلغاء المعاهدة في أكتوبر سنة ١٩٥١م ، هو تصاعد الموقف العدائي من جانب إنجلترا، وقد تمكنت اللجنة من إتمام عقد بعض الصفقات مع الشركات السويسرية والسويدية والفرنسية، كما حصلت على عروض لتوريد عربات وجرارات للمدافع من شركات ألمانية وفرنسية وإيطالية، كما تقدمت لها عروض من الحكومات التشيكوسلوفاكية بتوريد معدات جاهزة للتسليم».

«وكانت الحكومة المصرية ـ فيما يبدو ـ تنوي الاتفاق معها على شراء معدات

حربية من تشيكوسلوفاكيا».

«ثم قامت حركة الجيش سنة ١٩٥٢م ولم يتم الاتفاق مع الحكومة التشيكية حتى سنة ١٩٥٥م عندما أبرم الرئيس جمال عبد الناصر صفقة الأسلحة المشهورة».

***



ويلمح صلاح الشاهد، تلميحًا يقترب من التصريح، إلى أن الاتحاد السوفيتي كان لا يمانع في تزويدنا بالأسلحة منذ بداية الثورة، حيث التقى الرئيس محمد نجيب بالسفير السوفيتي لهذا الغرض، لكن البيروقراطية العسكرية المصرية مستندة إلى فكرة صعوبة تغيير التكنيك والنظم هي التي وقفت ضد هذا التوجه، وهذه فقرة من حديثه عن لقاء للرئيس محمد نجيب مع السفير السوفيتي:

«وقال السفير: يا سيادة الرئيس : إن موسكو وافقت على إعطائكم السلاح من ناحية المبدأ، ونحن ننتظر منكم تفاصيل ما تطلبون».

«وكان الرئيس نجيب مبتهجا».

«وأرسل السفير إلى اللواء عبد الحكيم عامر وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة المصرية، وطلب منه إعداد قائمة بالأسلحة المطلوبة».

«وتابع اللواء نجيب الموضوع مع عبد الحكيم عامر في حدود ما سمحت به أعباؤه، وكان الرد دائما أن الموضوع محل دراسة لما يتطلبه تغيير نوع السلاح في نظم القوات المسلحة والتكنيك الذي تتبعه.. ولم تتم الصفقة إلا بعد سنة ١٩٥٥م».

***

٨

كان صلاح الشاهد من أول من أشاروا إلى قصة تولى رشاد مهنا لمنصب وزير المواصلات ثم لعضوية هيئة الوصاية على العرش:

« في مساء يوم الأربعاء ١٠ من يوليو ١٩٥٢م دخل القائمقام محمد رشاد مهنا فحييته مرحبًا وجلس معي بعض الوقت دون أن أعلم سبب مجيئه وخجلت من سؤاله عن ذلك».

وبعد تناول القهوة استدعاني الرئيس الراحل على ماهر باشا وسألني عن مجيء القائمقام محمد رشاد مهنا فأجبته بالإيجاب فقال: أحضر صورة من القسم لكي يحلف اليمين أمامي.

فسألته:أي الوزارات سوف تسند إليه!

- وزارة المواصلات.

وصحبته إلى مكتب على ماهر حيث حلف اليمين وصدر المرسوم بتعيينه وزيراً.

وفي ٢ من سبتمبر سنة ١٩٥٢م قرر مجلس الوزراء برئاسة على ماهر تأليف هيئة الوصاية المؤقتة للعرش من :

الأمير محمد عبد المنعم - بهي الدين بركات باشا - محمد رشاد مهنا

***



ويمس صلاح الشاهد الحكم على محمد رشاد مهنا ، والإفراج عنه بعبارات خاطفة بعد أن يتعرض لخلافه مع الرئيس محمد نجيب وأعضاء مجلس قيادة الثورة،

وتعبيره عن اعتقاده في نفسه أنه بمثابة ثلث ملك:

«... واستمر القائمقام رشاد مهنا في أداء عمله من قصر عابدين حتى يوم ١٤ من أكتوبر سنة ١٩٥٢م، حيث أقيل من منصبه بعد مشادة حدثت بينه وبين الرئيس اللواء أركان حرب محمد نجيب، بعد أن أفهمه بأنه يتدخل في شؤون الحكم ولا يلتزم حدود منصبه كوصي على العرش، وأنه كان يقوم بدعاية صحفية واسعة».

«وهنا ثار مهنا، وخبط بيده على مكتبه قائلا: أنا هنا وصي.. يعني ثلث ملك».

«وقد خرج من المكتب الرئيس نجيب غاضبا ونقل ما حدث إلى زملائه وصدر المرسوم بإعفاء رشاد مهنا من منصبه»

«ثم ما لبث أن أعفى بهي الدين بركات باشا أيضًا من منصبه، وترك الأمير محمد عبد المنعم وصيا وحده على العرش إلى حين إعلان الجمهورية في ١٨ من يونيو سنة ١٩٥٣م».

«وعقب إقالة القائمقام رشاد مهنا، صدر الأمر بتحديد إقامته بمنزله في منشية البكري، ثم اتهم بعد ذلك بالاتصال ببعض زملائه من ضباط الجيش لكسب عطفهم بعد إقالته بدعوى عدم إعطائه الفرصة لتحقيق ما كان يطمح إليه من إصلاحات».

«وألقى القبض عليه بتهمة تدبير مؤامرة لإحداث فتنة بين أفراد القوات المسلحة والاستيلاء على قيادة الجيش».

«وقدم إلى المحاكمة أمام مجلس الثورة بهيئة محكمة، وأصدر المجلس في ١٩ مارس ١٩٥٣ الحكم عليه بالسجن المؤبد».

«ثم أفرج عنه إفراجا صحيا.. بعد ذلك».

١٠

كذلك فقد كانت مذكرات صلاح الشاهد من أوليات المذكرات التي أوردت القصة التي لم تكن معروفة عن ترشيح السنهوري لرئاسة الوزارة في بداية عهد الثورة، وكيف تمكن على صبري، وكان في ذلك الوقت على صلة بالأمريكيين، من إجهاض هذا الترشيح خوفا من غضب الولايات المتحدة والمجتمع الغربي ، وتظل رواية الشاهد واحدة من الروايات التي تصور لنا الدور الذي لعبه على صبري في الحيلولة بين بلاده وبين الإفادة من عبقرية الدكتور السنهوري في موقع رئيس الوزراء.. (ومن طرائف القدر أن على صبري نفسه حين خرج من الحكم وعلى أسوأ صورة خرج بها مسؤول مصري على الإطلاق حتى ذلك الوقت ألصق به تمامًا هذا الوصف العابر الذي نال الدكتور السنهوري على لسان على صبري) .. ولنطالع ما يرويه صلاح الشاهد:

«... ورشح الأستاذ سليمان حافظ الدكتور عبد الرزاق السنهوري ووافق محمد نجيب دون إبطاء على هذا الترشيح بوصفه سندًا للقانون والديمقراطية، ولكن قائد الجناح على صبري الذي كان حاضرًا هذا الاجتماع باعتباره سكرتيرا لمجموعة الطيران همس شيئًا في أذن قائد الجناح جمال سالم».

«ولم يلبث جمال سالم أن قال مندفعًا بصوت عال: وإنني أعترض على هذا الترشيح».

«وقال نجيب: لماذا الاعتراض ونحن جميعًا نجلُّ السنهوري ونعرف قدره ونعترف بجدارته ونثق في إخلاصه للحركة..؟».

«وقال جمال سالم : إنني أعرف كل ذلك، فقد أيد السنهوري قانون الإصلاح

الزراعي وأنا أحترم الدكتور السنهوري وأثق في إخلاصه للحركة».

«فسأل نجيب: ولكن ماذا ؟».

«جمال سالم: «إنني أتشفع الصراحة والإخلاص في عرض السبب الذي يحملني بالرغم عن ذلك على العدول عن الترشيح».

«فقال الرئيس نجيب: أرجو توضيح السبب لنا».

«جمال سالم: «لقد عرفت أن الأمريكيين سوف يعترضون على الترشيح ؛ لأن بعض الصحف الغربية نسبت إليه في أواخر عهد الملك السابق وأثناء وزارة الوفد أن له ميولا شيوعية أو يسارية».

«وذهل محمد نجيب .. وقال مفسراً: كيف ذلك؟».

«فانفجر جمال سالم بصوت غير عادي: «إنني برغم يقيني ببطلان هذه التهمة إلا أن مصلحة الحركة، وقد أخذت بعض الصحف في الخارج تتهمها بالشيوعية، توجب علينا أن نبتعد عن كل ما من شأنه أن يستغله الأعداء».

«وران على المجلس الصمت».

«ولم يفقد السنهوري باشا رباطة الجأش، فأجاب في صوت هادئ يفيض ثقة: «إنني أقر وجهة نظر جمال سالم ، وأعرف أن الذريعة التي استندت إليها الصحف الغربية في اتهامي بالشيوعية مرجعها إلى أنني وقعت وزملائي من مستشاري محكمة القضاء الإداري بمجلس الدولة نداء للسلام ، ورد إلينا بالبريد من الخارج كما ورد مثله لسائر الهيئات في ذلك الحين عام ١٩٥٠م ولا يخرج مضمون هذا النداء عن الدعوة لإقرار السلام العالمي بمنع أسلوب الحروب ومحاصرتها».

«وإنني أطلب الانتقال للحديث عن المرشح الآخر».

«وظهر اقتراح تعيين سليمان حافظ فاعتذر مفضلا منصب المستشار القانوني

لرئيس الوزراء كما فعل مع على ماهر باشا».

«وعندئذ اقترح السنهوري باشا تولي اللواء محمد نجيب رئاسة الوزراء بجانب رئاسة مجلس قيادة الثورة».

***

١١

ومن الطريف أن صلاح الشاهد حاول أن يصور قيمة السنهوري في الوقت الذي لم تكن شخصية القانوني الكبير قريبة للعامة !! بسبب ما عاناه من عزل سياسي، وقد لخصها في قوله:

«ولقد عمل السنهوري بالسياسة وتولى وزارة المعارف ثم وزيرا للدولة ورئيسا لوفد مصر في اجتماع جمعية الأمم المتحدة ١٩٤٦م، وحصل على قرار يدين الاحتلال البريطاني، ثم اختير عضوا بوفد مصر سنة ١٩٤٧م الذي رأسه المرحوم النقراشي باشا لعرض القضية المصرية على مجلس الأمن».

***

١٢

ويشير صلاح الشاهد إلى الاعتداء على الدكتور عبد الرزاق السنهوري في مجلس الدولة في أثناء أزمة مارس ١٩٥٤م ، و ينفرد بأن يذكر أن السنهوري تقدم ببلاغ إلى النيابة العامة اتهم فيه جمال عبد الناصر صراحة، كما أنه رفض مقابلته عندما زاره، ثم يشير إلى الطريقة التي تخلصت بها حكومة الثورة من وجود السنهوري على رأس مجلس الدولة:

«.... وقد اتهم السنهوري أمام النيابة العامة جمال عبد الناصر بتدبير الحادث، كما

أنه رفض مقابلته عندما زاره بعد الاعتداء عليه ليعوده».

«ثم سقط السنهوري من رئاسة مجلس الدولة بحكم قانون صدر بمنع الوزراء الحزبيين من ممارسة العمل».

«وظل السنهوري بعيدا عن الأحداث إلى أن وافاه الأجل واختاره الله في سنة ١٩٧١».

«وكان ـ رحمه الله ـ قد حصل على جائزة الدولة التقديرية سنة ١٩٧٠م في عهد الرئيس عبد الناصر».

ربما كان من الجدير بالذكر هنا أن نشير إلى ما أشار إليه الدكتور أحمد هيكل في مذكراته من أن جوائز الدولة التقديرية والتشجيعية في ذلك العام لم تسلم لأصحابها في حفل رئاسي بسبب فوز الدكتور السنهوري بالتقديرية، وأن الرئيس عبد الناصر لم يكن ليتقبل مصافحته حتى كفائز بهذه الجائزة.

***

١٣

أما أكثر الشخصيات التي تحظى بانتقادات صلاح الشاهد في هذه المذكرات فهو عضو مجلس قيادة الثورة ونائب رئيس الوزراء جمال سالم، إذ يشير إلى كثير من الوقائع التي كان جمال سالم طرفا فيها إشارات حافلة بالانتقاد، وهو يتحدث عن الفترة التي عمل فيها جمال سالم رئيسا للوزراء بالنيابة في أثناء سفر الرئيس عبد الناصر لحضور مؤتمر باندونج، وقد كان على صلاح الشاهد أن يعمل مع جمال سالم كأمين لرئيس الوزراء:

«... وفي الحقيقة، كنت خائفًا من تصرفات السيد النائب وكنت أحسب لها ألف حساب . وبدأ أول الفصول .. عندما زار صاحب السمو الملكي الأمير فيصل

وزير خارجية المملكة العربية السعودية القاهرة وأراد سموه العودة إلى السعودية صباح يوم ١٢ من إبريل سنة ١٩٥٥م وبعد منتصف الليل اتصل بي اللواء عبد الحكيم عامر وزير الحربية لكي أبلغ النائب بسفر الضيف الكبير. وكان لا بد من حضور نائب رئيس الوزراء لوداع ضيف مصر، وحاولت جاهدًا الاتصال به أو بمدير مكتبه أو ياوره الخاص، ولكن ذهبت المحاولات سدى. وامتنع على إبلاغ النائب جمال سالم بالموعد.. فاتصلت باللواء عامر وأبلغته بما حدث فأخذ على عاتقه إبلاغ جمال سالم شخصيًا بالموعد. و في مطار القاهرة تمت مراسم وداع الأمير فيصل دون أن يحضر النائب ، ولم ينقذ الموقف سوى حضور اللواء عامر هذه المراسم وكان في شرف وداع الضيف العظيم».

«وبالرغم من ذلك فإن النائب جمال سالم هاج وماج وقابلني عند مدخل مجلس الوزراء بثورة عارمة ، وبصوت عالٍ مفعمٍ بالغضب صاح فيّ :أنت بتشتغل مع مين، معايا ولا مع عبد الحكيم؟ وقلت في هدوء: ياسيادة النائب ... لنتكلم في المكتب.، وسبقني على المكتب والشرر في عينيه. وبدأ الصياح والهياج ... وسألني: كيف تخبر عبد الحكيم عامر بسفر الأمير ولا تخبرني؟ وتمسكت بأهداب الصبر وبدأت أشرح للنائب ما حدث.. فقال: كان لا بد أن تتصل بي ، فقلت: وكيف السبيل ؟ وأنا لا أعلم أين سيادتك ولا أعرف نمر تليفونك، وهذا هو اليوم الأول لعملي معك؟ فقال : اتصل بي عن طريق بوليس النجدة. وكتمت غضبي في صدري ، وقلت: لم تجر العادة لرجل المراسم أن يتصل بكبير من كبراء الدولة عن طريق البوليس، وانتهت الزوبعة.. وازدادت خشيتي ... وكنت أعد الأيام بالساعات والدقائق والثواني».

❊❊❊

١٤

ونأتي إلى واقعة يرويها الشاهد لتعضيد وجهة نظره لكننا نجد من حق جمال سالم علينا أن نشير إلى مدى ما كان يتمتع به من حس ديني جعله يثور لهذا التصرف الظاهر من فبل أن يعرف سببه :

«وجاء شهر الصوم المبارك.. كنت مريضًا بالقرحة في المعدة، وأمرني الأطباء بالإفطار.. وكانت العادة أن يقدم لي في الظهر المرحوم عم داود - ساعي المكتب - كوبا من اللبن وتفاحة. وذات يوم رأي النائب هذا المنظر ... فصاح في صوت غاضب : الكافر مين اللي فاطر..؟ ولم يجب الساعي المسكين فرقًا [أي من رعبه] وخرجت إلى النائب.. وقلت له: ياسيدي .. أنا الكافر.. وأنا مريض بالقرحة.. وليس على المريض حرج. وسكت النائب على مضض».

***

١٥

ويشير صلاح الشاهد أيضًا إلى موقف (نال إعجابه) للواء محمد صدقي محمود (قائد الطيران الأشهر) في مواجهة جمال سالم:

«في إبريل سنة ١٩٥٦م أثناء سفر الرئيس الراحل جمال عبد الناصر إلى المملكة العربية السعودية للاجتماع بالإمام أحمد ملك اليمن من محطة ألماظة الجوية العسكرية وكان في رفقته كل من : الرئيس أنور السادات، فضيلة الشيخ أحمد حسن الباقوري، السيد خيرت سعيد نائب وزير الخارجية، السيد على صبري مدير مكتب الرئيس، السيد أمين شاكر مدير مكتب الرئيس والسفير السعودي بالقاهرة ، وحضر إلى ألماظة قائد جناح جمال سالم - رحمه الله- وكان يشغل منصب نائب

رئيس الوزراء»

«ولما كان الجندي المكلف بالحراسة على بوابة المحطة لا يعرف جمال سالم بشخصه، فقد طلب منه إبراز تحقيق الشخصية، ولكن جمال سالم بادره بضربه باليد والرجل وصاح فيه: أنا جمال سالم نائب الرئيس.. وتوجه مترجلًا وفي حالة عصبية إلى الصالون الصغير بالمطار.. وأخذ يصيح بصوت عال موجهًا الكلام إلى اللواء صدقي محمود قائد الطيران قائلاً: ربوا عساكركم... تعرف مين اللي داخل .. مفيش ضبط ولا ربط. فما كان من اللواء صدقي محمود إلا أن أوقفه عند حده قائلاً: أنا هنا قائد للمحطة ، وأستطيع أن أضعك تحت التحفظ.. وقامت مشادة كبيرة بينهما على مسمع ومرأى من المودعين. وفي أثنائها وصل اللواء عبد الحكيم عامر - رحمه الله- وهدأ من روع صدقي محمود ، وأخذ جمال سالم إلى الصالون . وأذكر أن صدقي محمود ترك الصالون مغضبًا وأشعل سيجارة وأفطر في رمضان بسبب المشادة ، ولم يعلم الرئيس جمال عبد الناصر بما جرى... إلا عندما أخبره اليوزباشي محمود الجيار بالحادث في الطائرة فأثنى على شهامة وموقف صدقي محمود».

***



ويحرص صلاح الشاهد على الإشارة إلى ما يعتبره اضطهادًا من جمال سالم للصحفيين الذين كانوا يجتهدون في أداء مهمتهم المهنية:

«أذكر .. وكنا في رمضان ، أنه بعد انعقاد مجلس الوزراء وكان قد امتد إلى ما بعد منتصف الليل خرج قائد الجناح جمال سالم، وكان نائبًا لرئيس مجلس الوزراء ، وعلى سلم رئاسة مجلس الوزراء طفق يخاطب الصحفيين بعد أن أخبره أحدهم بأنه

مرشح لرئاسة المجلس النيابي المزمع انتخابه».

«وانفعل جمال سالم قائلا :- هل تظن أن هذا الشعب يحكم حكمًا ديمقراطياً؟.. يجب أن يحكم بالحديد والنار.. لا حرية ولا ديمقراطية».

«وهنا قال أحد الصحفيين وكانوا أكثر من عشرة معظمهم أحياء إلى الآن :

«إن الرئيس جمال عبد الناصر صرح في خطاب له بأن الانتخابات على الأبواب وأن المجلس سوف يعقد قريباً».

«وثار قائد الجناح... قائلًا : دا كلام فارغ. لا مجلس نيابي ولا حاجة أبداً».

«وهنا نظر الصحفيون باستغراب ،وساء هذا التصرف قائد الجناح وأقسم يمينًا بأنهم لن يغادروا الرئاسة قبل طلوع الشمس، وجلس على السلم الرخامي وأخد يكذب كل شيء يتعلق بموضوع المجلس النيابي ، واستمر ينتقل من حديث لآخر حتى بزوغ الشمس ، وانصرف تاركا وراءه كل الصحفيين الذين لم يتمكنوا من تناول السحور».

***

١٧

وعند هذا الحد يعترف صلاح الشاهد بدوره هو نفسه في إشعال الفتنة :

«وبعد ذلك بيومين كتب الأستاذ سامي الليثي الصحفي بمجلة روز اليوسف في هذا الوقت كل ما حدث في هذه الليلة من وقائع».

«وعند حضور الرئيس عبد الناصر ومعه اليوزباشي محمود الجيار.. قلت للجيار : أيهما نصدق :الرئيس عبد الناصر الذي يقول بأن هناك انتخابات ومجلسًا نيابيًا أم نائب الرئيس الذي كذب هذا الخبر».

«وتركني وانصرف..».

«وذهبت إلى مكتبي ، وبعد قليل استدعاني الرئيس جمال عبد الناصر وأعطاني ورقة مطبوعة حديثًا ومبتلة بالماء ومتضمنة كل ما حدث في الليلة الليلاء من جمال سالم (وكانت بروفة من صفحات المجلة قبل الطبع)».

«وسألني الرئيس عن صحة هذه الوقائع، فأكدت له صحتها وأنني كنت موجودًا مع الصحفيين حتى الصباح».

«فطلب مني أن أبلغ نائب الرئيس جمال سالم عند وصوله أن الرئيس يرغب مقابلته وحضر قائد الجناح وقابلني قائلًا : نمت كويس.. وضحك..».

«وبعد أن قابل الرئيس جمال عبد الناصر، خرج هائجًا ودخل إلى حجرتي وأمسك بخناقي وحاول الاعتداء على، لولا دخول الرئيس جمال عبد الناصر بنفسه الذي فض المعركة، ونهر نائب الرئيس وطلب مني أن أذهب لمنزلي للاستراحة هذا اليوم».

***



ونأتي إلى موقف طريف لا غرابة في حدوثه :

«... وقبل تقديم أحد السفراء أوراق الاعتماد إلى النائب جمال سالم أوضحت له ما تقتضي به أحكام المراسم المعمول بها من وجوب ارتداء ملابس قاتمة أو زي عسكري أثناء تسلم أوراق الاعتماد.

ولكني فوجئت بأن النائب يلبس بدلة أسبور عادية : عبارة عن بنطلون جبردين وجاكته زيتي ، وحذاء شمواه كريب دون مراعاة للتقاليد أو أبسط قواعد المراسم.

وسألني عن رأيي في هذا الزي الشاذ... فقلت له:

-إنه يخالف جميع قواعد المراسم المعمول بها في دول العالم.

ولكنه لم يكترث، بل قال هازئًا :

- يعني يا سيدي السفير بتاعك لما ييجي يلاقيني كده يقول لا ! مش ح ادي له أوراق الاعتماد..

فقلت له : لا ... بل سوف يقدم أوراق الاعتماد ، ولكنه سوف يرفع تقريرًا بما حدث لحكومته ويقص على زملائه السفراء هذه الحكاية ، وتنشر لتكون فضيحة في المراسم لم تشهدها التقاليد.

ولكنه سخر.

وتمت عملية تقديم أوراق الاعتماد، ونائب رئيس الوزراء في بدلة سبور «مشكلة» .

وانقضت الأيام وكأنني في سجن رهيب»

***



أما أقسى ما كتبه صلاح الشاهد نقدًا في جمال سالم ، فهو روايته عن قصة زواج جمال سالم من مطلقة المهندس ي .ع ، وعن موقف الرئيس جمال عبد الناصر من هذه الواقعة:

« كان المرحوم المهندس الزراعي ي .ع. مديرًا لشركة السكر في كوم امبو.. وقد نشأت بينه وبين قائد الجناح جمال سالم نائب الرئيس علاقة من نوع خاص لا يمكن أن توصف بأنها صداقة ، بل يجوز القول بأنها علاقة عمل ربطت بين المهندس

ونائب الرئيس - رحمهما الله - في مجلس الإنتاج القومي».

وبعد فترة من الزمان، شب نزاع في بيت المهندس وبدأ الشقاق بينه وبين السيدة زوجته التي طلبت الطلاق وديا دون عرض النزاع على القضاء.

وتقدم جمال سالم لخطبة السيدة بعد انقضاء العدة وتحدد يوم الخميس ٢٢ من مارس سنة ١٩٥٦ لعقد القران بمنزل أسرة العروس بالإسكندرية .

ودعي جميع أعضاء مجلس قيادة الثورة لحضور حفل العرس.

وفي هذا اليوم نفسه سافر الرئيس جمال عبد الناصر إلى الإسكندرية.

وظننت أنه قد سافر لحضور حفل القران وتهنئته بمناسبة الزيجة الجديدة.

وقد سألت سيادته مستفسرًا عما إذا كنا سنرسل باقة من الورود إلى حفل الزفاف ! ولكن الرئيس خرج بالصمت عن لا و نعم .

كان الرئيس يريد أن يعبر لنائبه عن عدم رضائه عن هذا الزواج وكان التعبير بالإغضاء، ولذلك لم يحضر الرئيس حفل الزواج بالرغم من أنه كان موجودًا بالإسكندرية وقت إشهار هذا الزواج».

***

٢٠

أما أهم رواية قدمها صلاح الشاهد في تاريخ صلاح سالم ففيها يحكي الشاهد ذكرياته عن استقالة صلاح سالم من مجلس الوزراء، وكيف أنها لم تكن استقالة وإنما كانت إعفاء.. ولست أدري سببا يستند إليه في هذا التشخيص !! وهو يقول :

«وفي ٣١ من أغسطس ١٩٥٥م قدم الصاغ صلاح سالم - وزير الإرشاد القومي - استقالته من الوزارة، وصدر بيان من مجلس الثورة بقبولها، ولكن لم يشر

إلى أسباب هذه الاستقالة.

ويلاحظ أن هذه الاستقالة ترجع في ظروفها وملابساتها إلى سياسة صلاح سالم في السودان ، ذلك أنه قام برحلة إلى جنوب السودان برفقة اللواء عبد الحكيم عامر وزير الحربية بتكليف من الرئيس جمال عبد الناصر ، ثم عرض عليه نتيجة السياسة التي انتهجها في السودان ، وقد علم الرئيس عبد الناصر بأن هذه السياسة أغضبت السودانيين وأدت إلى الفرقة بين صفوف المؤيدين للوحدة مع مصر، بل كانت هذه السياسة من شأنها إلغاء الاتفاقيات التي أبرمت بشأن السودان .

وقد تخللت الرحلة بعض الحوادث المثيرة وسجلت أحداثها في فيلم سينمائي ظهر فيه وزير الإرشاد عاريا - كما ولدته أمه - في غابات جنوب السودان .

وعند عودته حضر اجتماع مجلس الوزراء لعرض نتيجة رحلته وبعد سرد وقائع الرحلة ناقشه الرئيس جمال عبد الناصر فيما علم به من الانتقادات التي وجهت إلى الصاغ صلاح سالم وفيما اقترن بالرحلة من ظروف.

وكان من رأي الصاغ صلاح سالم أن يعمل ما في وسعه لإرضاء السودانيين تارة بالتنازل عن ممتلكات مصر في السودان وتارة بتوزيع الملايين من الجنيهات على بعض رجال الأحزاب وزعماء القبائل لكي «يملأ عيونهم».

ولكن الرئيس جمال عبد الناصر انتقد بعضًا من هذه الأساليب.

وشعر صلاح سالم بعدم الثقة به خاصة وأنه ناقشه في بعض الأمور التي حدثت في جنوب السودان مناقشة تفصيلية كما أن الرئيس كان قد بعث معه اللواء عبد الحكيم عامر وهنا غضب صلاح سالم وقال:

- أنني اعتبر نفسي مستقيلاً.

ورد عليه الرئيس جمال عبد الناصر في التو واللحظة قائلاً:

- لقد قبلت استقالتك.

وفي الواقع أنه لم تكن ثمة استقالة بالمعني المفهوم ولكن كان الأمر إعفاء وصدر البيان بقبول استقالته.

***



و مع هذا فإن صلاح الشاهد رجل المراسم بحكم المهنة لا يفوته أن ينوه بحجم وأسبقية التكريم الذي حصل عليه صلاح سالم فيما بين رفاقه :

«وأذكر بعد وفاة المرحوم صلاح سالم أن أهدى الرئيس جمال عبد الناصر إلى اسمه قلادة النيل، وهي أرفع الأوسمة التي حصل عليها أعضاء مجلس الثورة بعد ذلك».

«وقد توجهت أنا والفريق محمد رشاد حسن كبير الياوران، حيث سلمنا القلادة إلى أرملته».

***

٢٢

وبالإضافة إلى جمال سلام (وشقيقه صلاح بالتبعية) فلعل الأستاذ محمد فؤاد جلال وزير الإرشاد القومي في بدايات الثورة كان صاحب أقسى صورة في مذكرات صلاح الشاهد .

وقد روى الشاهد عدة وقائع عن سلوكيات محمد فؤاد جلال انتهى منها إلى الحكم الذي رواه على لسان الرئيس محمد نجيب بأنها «أزمة أخلاق» .

وأول هذه المواقف قصة فنان نمساوي جاء ليرسم صورة للرئيس محمد نجيب،

وعدل الرئيس عن نشر الصورة على غلاف المصور كما كان مقررا ، وأبلغ صلاح الشاهد هذه الرغبة لفؤاد جلال وزير الإرشاد القومي لكن المصور صدر ناشرا الصورة:

«... واتصلت يوم الأحد بالمرحوم فؤاد جلال - وكان وزيرًا للإرشاد القومي - وأبلغته برغبة الرئيس في عدم نشر الصورة.

ولكن في يوم صدور المجلة (الأربعاء) فوجئت بأن الصورة منشورة على الغلاف. فأخذت المجلة إلى مكتب اللواء محمد نجيب الذي غضب غضبًا شديدًا، واتصل فورًا بوزير الإرشاد، ولكن الوزير تنصل من ذلك بأن أحدًا لم يتصل به فلم أتمالك نفسي من أخذ السماعة وصحت في الوزير.

- يافؤاد بك ، أنا بلغتك يوم الأحد بعدم نشر الصورة الفنان النمساوي.

فقال أيوه.. دا نمساوي.

فقلت : ما هي نفس الصورة.

فقال : أنا ما عرفش أنه نمساوي.

فلم يتملك الرئيس محمد نجيب نفسه وجذب السماعة وقال للوزير بصوت غاضب :نمساوي ، ألماني، فرنساوي ... قال لك صلاح وإلا لأ ؟ خلوا عندكوا شجاعة أدبية واعترف بالخطأ.. أنا مش محضر مشنقة.. عيب.

***



وهذه هي الواقعة الثانية:

« وأذكر أيضا أن الصديق القديم :أنور طه حبيب - وكان رئيسًا للنيابة - كان

منتدبًا للعمل رقيبًا عامًا على الصحف خلال الأزمة بين مجلس الثورة والرئيس محمد نجيب ، وصدرت تعليمات إلى السيد فؤاد جلال وزير الإرشاد القومي بعدم نشر أي أخبار عن اللواء محمد نجيب، وأبلغ الوزير هذه التعليمات إلى الأستاذ أنور طه حبيب الرقيب العام الذي قام بدوره بإبلاغ الصحف ذلك على أن تتحمل إدارة كل صحيفة مسؤوليتها عن النشر.

وعند إبلاغ الأستاذ أحمد أبو الفتح بذلك اتصل بالبكباشي جمال عبد الناصر نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية لكي يتبين منه حقيقة الأمر، ويبدو أن جمال عبد الناصر لم يكن على علم بالمسألة، فاتصل بوزير الإرشاد القومي الذي أنكر صدور مثل هذه التعليمات عنه وأن الأستاذ أنور طه حبيب قد تصرف على مسؤوليته.

وفوجئت بالزميل القديم في مكتبي بالرئاسة ليقص عليّ الخبر فأخذته من يده وأدخلته على اللواء محمد نجيب ليقص عليه ما حدث..

***

٢٤

وهذه هي الواقعة الثالثة التي يدلل بها الشاهد على رأيه في محمد فؤاد جلال :

" أبلغ الأستاذ أنور طه حبيب الرقيب العام المرحوم محمد فؤاد جلال بأن المصور سينشر صورة لمجلس قيادة الثورة يظهر فيها القائمقام يوسف صديق منصور بعد أن عزله المجلس من عضويته وأن التعليمات لديه بعدم نشر هذه الصورة ولكن السيد الوزير قال له أوافق على النشر على مسؤوليتي أنا الخاصة بوصفي وزيرًا للإرشاد القومي. وعند ظهور مجلة المصور وبها الصورة هاجت الدنيا وماجت .. وبسؤال الرقيب العام قال : إن الوزير هو الآمر بالنشر. وهنا

أنكر الوزير ... وطلب من الرقيب العام مصادرة العدد وقال بالحرف الواحد.

- أوعي توري وشك لمحمد نجيب.

وحضر إلى زميل الصبا الذي اعتز بصداقته وأبلغني ما حدث فأخذته من يده إلى الرئيس نجيب، و قص على الرئيس القصة.

فرد الرئيس محمد نجيب مبتسمًا : الأزمة أزمة أخلاق، وانعدام الشجاعة الأدبية.

***



وقد حرص صلاح الشاهد في مذكراته على أن يقدم تفسيرا خاصا و«ضيقا» في مغزاه ودلالته لإقالة الدكتور محمد حلمي مراد من منصبه كوزير للتربية والتعليم:

«عندما كان الدكتور محمد حلمي مراد وزيرًا للتربية والتعليم وجهت إليه دعوة لزيارة الكويت والبحرين في أواخر شهر أبريل سنة ١٩٦٩ وذلك لتفقد معاهدها ومدارسها ودراسة أحوال البعثات التعليمية التي ترسلها الوزارة إلى هذه البلاد».

«ولما كانت هذه الدول لا تتبع نظام الأوسمة التي تهدي لكبار الزائرين فقد أهدي الدكتور محمد حلمي مراد طاقمًا للشاي المصنوع من الفضة من حكومة الكويت، كما أهدى ساعة من البلاتين المرصع بالماس من طراز «بياجية» وعقدًا من اللؤلؤ من حكومة البحرين».

«وعندما قفل الدكتور محمد حلمي مراد راجعًا إلى مصر اتصل بي معلنًا عدم قبوله مثل هذه الهدايا وأنه سوف يبعث بها إلى الرئيس جمال عبد الناصر، ولكنني أفهمته بأسلوب لبق أن مبدأ تبادل الهدايا من المبادئ المستقرة والمعمول بها بين كافة الدول وأنه لا حرج عليه في قبول هذه الهدية».

«ولكن الدكتور محمد حلمي مراد كان حنبلياً، فأصر على عدم قبول الهدايا بأية صورة من الصور ، وطلعت جريدة الأهرام بخبر نشره كمال الملاخ بتاريخ ١٩/ ٥/ ١٩٦٩ يشير إلى رفض الدكتور محمد حلمي مراد للهدايا بإباء وشمم».

«وأرسل الدكتور محمد حلمي مراد الهدايا إلى ديوان كبير الأمناء وحاولت التملص بمنتهى اللباقة من قبولها ، ولم أتمكن فرفعت إلى السيد رئيس الجمهورية مذكرة من ثلاث صفحات ضمنتها خلاصة الرأي في هذه الحالات ، وتطبيق مبدأ قبول كبار الزائرين من الشخصيات لهدايا الدول، وأن هذا المبدأ معمول به في كافة دول الأرض جميعًا : ملكية كانت أم جمهورية ، رأسمالية كانت أم شيوعية .. وعرضت على الرئيس القصة بأكملها من الألف إلى الياء».

«ويبدو أن الرئيس قد استاء وأذكر أنه هز رأسه وقال مستنكراً: يعني أننا عندما نقبل الهدايا نبقى لصوص، والا يعنى الدكتور محمد حلمي مراد عنده أخلاق واحنا لأ، لما نشوف».

«وكان الرئيس محنقًا وأشار على بإيداع الأشياء بمخزن الهدايا برئاسة الجمهورية».

«وبدأت العلاقة تتردى بين الرئيس والدكتور محمد حلمي مراد منذ هذا اليوم حتى يوم ٦ من يوليو سنة ١٩٦٩م يوم اجتماع مجلس الوزراء».

«وحضر الوزراء».

«ثم حضر الرئيس وسألني : هل حضر السادة الوزراء؟».

«فأجبت بالإيجاب».

«فقال : وهل حضر الدكتور محمد حلمي مراد؟».

«فأجبت بالإيجاب أيضاً..».

«ويبدو أن الرئيس لم يرقه حضور الدكتور محمد حلمي مراد المجلس في هذا اليوم».

«ودخل الاجتماع مكفهرًا عابسا مقطب الجبين».

«ولم تمض دقائق حتى انفض اجتماع مجلس الوزراء وخرج الرئيس مسرعًا غاضبًا في طريقه إلى السلم الرئيسي ليركب سيارته»،

«وعند وصوله منزله بمنشية البكري اتصلت بي سكرتارية الرئيس، وطلبت مني إبلاغ سامي شرف وشعراوي جمعة وأمين هويدي بعدم استعداد الرئيس لمقابلة أحد منهم هذه الليلة لأنه متعب وصعد إلى الدور العلوي ليستريح ».

«أما الدكتور محمد حلمي مراد فقد وقف مع بعض الوزراء في حديقة القصر يتكلمون».

«وفي ١٠ من يوليو صدر القرار الجمهوري بإعفاء الدكتور محمد حلمي مراد من منصبه، وفي رأيي أن واقعة الهدايا كانت السبب الرئيسي لخروج الدكتور محمد حلمي مراد من الوزارة ».

هكذا يقول صلاح الشاهد!! ومن حق القارئ أن نشير عليه بقراءة ما رواه كثيرون عن هذه الاستقالة ومنهم سيد مرعي والدكتور محمد حلمي مراد نفسه.

***

٢٦

كذلك يضمن صلاح الشاهد هذه المذكرات تفسيرا آخر ضيق المنظور لإقالة الشيخ أحمد حسن الباقوري من منصبه كوزير للأوقاف، وهو يقول:

«تربطني مع فضيلة الشيخ أحمد حسن الباقوري صداقة طويلة، ومودة خالصة ترجع إلى زمن ليس يالقصير، وطالما طلبت منه أن يصرف على بعض المستحقين من خيرات وقف أم حسين، وكان يطلق عليها فضيلته «وقف جدة الشاهد».

«وكنت أزوره بمكتبه ودخل علينا ضابط من المخابرات يصطحب فتاة صارخة الجمال وطلب إليه أن يصرف لها من خزانة الأوقاف شهريا مبلغ خمسة وعشرين جنيها بسبب فقرها وحاجتها، ولم تكن علامات الفقر أو الحاجة تبدو عليها، وهي تنفجر أنوثة وأناقة وظرفا وحيوية».

«وأذكر أن فضيلة الباقوري أجاب الضابط بقوله:

«تزوجها على بركة الله، فأموال المسلمين لا تنفق على السفه والنزوات، بل تصرف للفقراء من المسلمين والمساكين حسب الموارد الشرعية».

«والتفت إلى السيدة (الطالبة) وقال لها: «أما أنت فعليك بالحشمة، فالحشمة تاج المرأة».

«ويبدو أن الدرس كان مؤلما للضابط وانقضت عدة شهور ووصلت دعوة إلى الرئيس لحضور عقد قران كريمة فضيلة الشيخ الباقوري.. ولكن الرئيس قابل الدعوة بفتور».

«وقد ذكرته بأن العادة جرت أن ترسل هدية باسم رئيس الجمهورية في مثل هذه المناسبة، لكن الرئيس أشار بأنه لا داعي لذلك.. ولم أدر لذلك سببا».

«ثم حضر الرئيس حفل القران مكتفيا بإرسال باقة من الورد إلى العروس».

«وبعد أقل من أسبوعين صدر قرار بإقالة الشيخ الباقوري دون سبب، وانطلقت الشائعات تملأ البلاد حول أخلاق الشيخ تنسب إليه مسائل وأحداثا، كان صانعوها ومروجوها ودعاتها رجال المخابرات وعملاءهم في أنحاء البلاد، واستمرت

الشائعات معربدة تنال من كرامة الشيخ وتنهشه».

«ولما كان الناس تبعا للزمان كما يقول الشاعر العربي، فقد انفض الناس عن الباقوري ومجلسه إلا اثنين ظلا مقيمين على الود هما: المهندس أحمد عبده الشرباصي، والدكتور نور الدين طراف عضوا مجلس الرئاسة وقتئذ».

«وانجلت الحقائق بعد ذلك، وسوف تكشف الأيام أن الباقوري كان ضحية لتقرير رفعه إلى رئيس الجمهورية ضابط موتور أراد أن يجعل أموال المسلمين مشاعا لإحدى الساقطات، وعندما يرفض الوزير يكون مآله التشهير والإخراج من الوزارة».

***

٢٧

ثم يرتدى صلاح الشاهد مسوح البطولة ويحاول أن يقنعنا أنه كان في صف الشيخ الباقوري وأنه أنقذه وأنقذ صورته عند الرئيس عبد الناصر، ويكاد الشاهد يتجاهل حقيقة يعرفها كل الناس وهي أن الباقوري ظل محدد الإقامة طيلة خمس سنوات وخمسة شهور وخمسة أيام (على نحو ما حسبها بنفسه ذلك العالم الجليل خفيف الدم):

«وقد أخبرت الرئيس عبد الناصر بالواقعة كما شاهدتها وكما سمعتها أذناي وعرف عبد الناصر الحقيقة».

«وعاد الباقوري إلى الحياة العامة التي ظل مبعدا عنها وبعيدا عن أضوائها لسبب بسيط.. هو أنه أراد أن يحافظ على أموال المسلمين».

***

٢٨

وتنفرد مذكرات صلاح الشاهد بالإشارة إلى واقعة شكوى الملك فيصل من وجود محمد حسنين هيكل في الوفد المصري إلى مباحثات جدة التي عقدت بين الرئيس عبد الناصر والملك فيصل:

«... لما رغب الرئيس عبد الناصر في السفر إلى جدة سنة ١٩٦٥م لتوقيع الاتفاقية التي عرفت باتفاقية جدة، غادر الرئيس الإسكندرية بالطائرة إلى رأس بناس حيث استقل الباخرة الحرية (المحروسة سابقا) وبرفقته السيدان أنور السادات وزكريا محيي الدين».

«وصحبنا الأستاذ محمد حسنين هيكل وغيره».

«ولما وصلنا كان في الاستقبال جلالة الملك فيصل والرسميون وسط إجراءات أمن مشددة، وكنا في رمضان، ونزلنا قصر الضيافة، وكان رئيس بعثة الشرف الأمير سلطان بن عبد العزيز وزير الدفاع».

«واتصل بي جلالة الملك تليفونيًا وأوصاني بكافة طلبات الرئيس عبد الناصر قائلًا : إن كل طلباته مستجابة ؛ لأني أريد أن يكون في منتهي الراحة، وكان الترتيب أن يتم الإفطار على المائدة الملكية، وتتلوه المباحثات . فاقترحت على جلالته أن يؤدي الجميع عمرة بعد الإفطار عسى الله أن يسهل الوصول إلى اتفاق. فقال الملك:

«كيف نصل إلى نتيجة مرضية ومن بين الوفد محمد حسنين هيكل الذي هاجمني وألف كتابًا خاصًا سماه «الاستعمار لعبته الملك» وذكر جلالته اسمًا آخر (تعمد الشاهد ألا يذكره) لكنه لم يركز عليه».

«وبعد مناقشة وافق الملك، وكان الترتيب الجديد أن يذهب الرئيس إلى قصر الملك للزيارة، ويتم الإفطار في القصر ثم نعود لقصر الضيافة للإحرام ثم أداء العمرة».

«وأبلغت الرئيس ما قاله الملك عن هيكل».

«فاعتذر الرئيس بأنه لم يكن يعلم قصة الكتاب ، وأنه يرى أن يعود هيكل مع الشخص الآخر إلى القاهرة».

«فأبلغت الملك اعتذار الرئيس وقراره، فرفض الملك اقتراح الترحيل لأنهما في بلده بل في ضيافته».

***

٢٩

وفي مذكرات صلاح الشاهد لمحات مهمة عن بعض مشاهداته المهمة في خارج مصر، ومن أهم هذه اللمحات حديثه عن التقدم الذي أصابته تكنولوجيا التجسس في الاتحاد السوفيتي، وهو يشير إلى أن الذي لفت نظره إلى هذه الحقيقة كان هو الرئيس جمال عبد الناصر نفسه:

«..... في آخر زيارة قام بها الرئيس الراحل جمال عبد الناصر لموسكو أقام في فيلا على ربوة تحيط بها حدائق الكريز وفواكه أخرى، رغبة في أن يتمتع بالهدوء، بدلا من النزول في الكرملين».

«وبينما كنت أسير في الحديقة وأقطف بعض ثمار الكريز التقيت بالرئيس، وفي أثناء حديثنا أخذت أبدى معارضة شديدة لسياسة الاتحاد السوفيتي وقادته، فقال لي الرئيس: كل اللي بتقوله بيتسجل».

«فعجبت وأبديت أنه غير معقول، فنحن في خلاء تام».

«فقال: أنت تركت البالطو بتاعك خارج غرفة نومك».

«فلما أجبت بالإيجاب قال: «طيب شوف الزراير وستجد أن أحدها قد تغير وفي داخله ميكروفون، وكل كلامك قد سجل الآن، وبعد كده ابقي خد الباطلو معك غرفة النوم».

«وفوجئت بأن الزرار قد تغير.. فأخذت أشكر الاتحاد السوفيتي وسياسته».

هكذا يعترف صلاح الشاهد بكل سهولة بطبيعة السلوك السياسي !! (المسارع في التغير إلى النقيض) الذي كان أمثاله ومَنْ هم في طبقته لا يمانعون في أن ينتهجوه في تلك الأجواء!!

***



وفي مقابل هذا يبدو صلاح الشاهد حريصا على أن يعبر عن إعجابه الهادئ بالأداء الأمني «اليقظ» في الولايات المتحدة الأمريكية ذاكرا واقعة كان هو نفسه طرفا فيها عند زيارة الرئيس عبد الناصر للأمم المتحدة في نيويورك :

«كانت الزيارة الأولى والأخيرة التي قام بها عبد الناصر إلى الولايات المتحدة في سنة ١٩٦٠ بمناسبة إلقائه خطابا في الجمعية العامة للأمم المتحدة بنيويورك، وألقى الرئيس خطابا».

«وقابل هناك بعض رؤساء الدول، كان من بينهم الجنرال دوايت أيزنهاور رئيس جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية الذي كان ينزل بفندق «والدروف أستوريا»».

«وقبل موعد الزيارة، ذهبت برفقة السيد ممدوح سالم وكان وكيلا للمباحث العامة في هذا الحين، واللواء سعد الدين متولي كبير الياوران وقتئذ، لتفقد المبنى والاستعداد للزيارة».

«وهالني أن أرى في مدخل الفندق ضابطين يبدو أنهما عربيان يجلسان في وضع غير لائق، ويضعان أرجلهما في وجه الداخل في منظر منفر».

«كما شاهدت على رصيف الفندق شخصا عربيا يدخن إحدى السجائر بعصبية ظاهرة وقلق، كأنه قادم على ارتكاب شيء».

«وأشرت إلى الصديقين ممدوح سالم وسعد الدين متولي بمخاوفي، ولكن السيد ممدوح سالم لم يكترث بالأمر وقال لي: لا تهتم».

«واتصل السيد ممدوح سالم برجال الأمن الأمريكي ولكنهم لم يفعلوا شيئا، وسري إلى نفسي الخوف».

«ولكن ما إن دنت قافلة الرئيس عبد الناصر من الفندق حتى أخرجت الأرض أربعة رجال من جوفها لا أعلم من أين أتوا، انقض اثنان منهم على الرجل الذي يدخن السيجار واقتاداه دون حراك».

«وضرب الاثنان الآخران بقدميهما على الضابطين فوقفا في أثناء دخول الرئيس عتبة الفندق».

«وصعد الرئيس لمقابلة الرئيس الأمريكي، ودامت الزيارة ساعة، ونزل الرئيس ولكن هذه المرة نزل من سلم آخر إلى طريق آخر خلاف الطريق الذي أتى منه أول مرة، ولم يحس الرئيس بشيء من هذا».

«وكانت عيون الأمن الأمريكي يقظة أكثر مما كنا نتوقع».

***



ويشير صلاح الشاهد في ثنايا مذكراته إلى كثير من الوقائع المفيدة لتاريخنا من خلال حديثه عن قيامه (من خلال منصبه القريب من السلطة) بأدوار محددة في

وقائع محددة.

ومن المواضع المهمة لتاريخنا ذلك الموضع الذي يتحدث فيه صلاح الشاهد عن نجاح توسطه هو نفسه في سفر الأمير محمد عبد المنعم للخارج سنة ١٩٥٨م وبكاء الأمير عند وصوله القرار:

«... استمر الأمير محمد عبد المنعم وصيا على العرش، وكان لا يعترض على ما يطلب منه، ثم نحى من منصبه بعد إعلان الجمهورية في ١٨ من يونيو سنة ١٩٥٣م، وظل في قصره معتكفا راضيا بمرتبه وقدره ١٥٠ جنيهًا».

«وفي سبتمبر سنة ١٩٥٨ اتصل بي الأمير عبد المنعم ، وطلب مني إبلاغ الرئيس عبد الناصر إنه يريد السفر إلى الخارج، وأنه طلب تأشيرة الخروج من السيد زكريا محيي الدين وزير الداخلية.. فرفض».

«ولما كنت أمينا طوال فترة عملي على أن أنقل الصورة الحقيقية لما يحدث إلى الرئيس وإبلاغه رغبات السياسيين القدامى الذين تربطني بهم صلات قوية، فقد سألني الرئيس عن سبب سفر الأمير فأخبرته بأنه سوف يسافر إلى سويسرا لزيارة أولاده الذين غادروا مصر منذ ثلاث سنوات».

«ولكني قبل أن أستطرد في الكلام ، طلب مني إحضار مجلة «المصور»، وكنا يوم خميس، فأحضرتها وأراني الرئيس صورة يوم توديع الملك فاروق على الباخرة «المحروسة» كملك للبلاد بعد تنحيته عن العرش في ٢٦من يوليو سنة ١٩٥٢ ، وصورة أخرى في الجهة المقابلة لما حدث بعد ثورة العراق من قتل لأفراد الأسرة المالكة العراقية الهاشمية».

«وقال لي الرئيس عبد الناصر: شوف الفرق بين المعاملة، فبعد قيام الثورة مباشرة كانت النية متجهة من أحد أفراد مجلس قيادة الثورة لمحاكمة الملك وأعضاء

الأسرة المالكة، لكني رفضت بشدة وهددت بالاستقالة لو نفذ ذلك».

«فأخبرته: نفرض يا سيادة الرئيس أنه سافر ولم يعد.. فإننا نستفيد بقصره، ونوفر للدولة ١٥٠ جنيها شهريا».

«واقتنع الرئيس وأصدر أمرا بسفر الأمير السابق.. عبد المنعم».

«وغادر الأمير مصر ولم يعد حتى اليوم، وأصبح قصره الآن مقرا للضيافة باسم «قصر الحرية».

«وأذكر أنني عندما عدت ذهبت لمقابلة الأمير وإبلاغه بالموافقة على سفره.. بكى كثيرا».

***

٣٢

ومن أطرف ما يرويه صلاح الشاهد عن أدوار قدر له أن يقوم بها ذكرياته التي يرويها على هيئة يومية سجلها في ١٨ من يناير ١٩٥٥م متضمنة قصة طريفة عن وفاة الفنان سليمان بك نجيب الذي مات فجأة وحيدا فقيرا ، وقد صمم أن يدعو الرئيس عبد الناصر لما يمكن وصفه بحفل اعتزاله الذي أعقبته وفاته في اليوم التالي :

«... أذكر أن الفنان الراحل سليمان نجيب مدير الأوبرا طلب ذات يوم مقابلة الرئيس عبد الناصر خلال أربع وعشرين ساعة لأمر مهم».

«وفي اليوم التالي حضر إلى مكتبي سليمان نجيب وعاتبني عتابا شديدا لعدم إتاحة الفرصة أمامه لمقابلة الرئيس، وقال بالحرف الواحد: ربنا ولا جمال عبد الناصر؟».

«وقلت له: أستغفر الله.. ما وجه الشبه بينهما؟».

«فقال: في إمكاني مقابلة الله سبحانه وتعالى بعد لحظات لو أطلقت على رأسي الرصاص فإني سوف أكون في لقاء الله بعد ثوان».

«فضحكت، ودخلت على الرئيس وأبلغته ما حدث فضحك.. وكان مجتمعا بالمرحوم أحمد حسني وزير العدل، وأمر بإدخال الفنان العظيم.. ودخل الفنان وبطريقته الظريفة ولهجته المحببة قال للرئيس عندما رأي وزير العدل إنه كان «ألفة» عليه عندما كانوا تلاميذ في المدرسة، وهو الآن وزير وأنا.. ممثل».

«وقد طلب من الرئيس أن يشاهد آخر عمل مسرحي له قبل اعتزاله الفن في الغد، فوعده الرئيس بذلك، وذهب فعلا لمشاهدة المسرحية وكان اسمها «المشكلة الكبرى»».

«وقد كان الفنان سليمان نجيب رائعا إلى حد كبير، وكأنه كان يحس أنه يمثل آخر أدواره على المسرح فأجاد وأبدع».

«وفي اليوم التالي الأربعاء ١٩ من يناير انتقل الفنان إلى جوار الله».

«وأذكر أنه في أثناء الاستراحة بين الفصول قابل الفنان سليمان نجيب الفنانة الكبيرة زينب صدقي ـ أطال الله عمرها ـ وقال ضاحكا:

«إنني أعرض عليك اتفاقية جنتلمان.. فكلانا أعزب، ومن يمت قبل أخيه يقم بواجب الأخوة نحو منزله فيرعاه ويشرف عليه».

«وأشهدني وشكري راغب على هذا الاتفاق.. وضحكنا.. وكأنه كان يحس بدنو جله».

«وأبلغت الرئيس النبأ.. فكلفني أن أنوب عنه في تشييع الجنازة وإقامة سرادق العزاء والإنفاق على مصاريف الجنازة».

«وذهبت إلى منزل فناننا الراحل فوجدت الجميع يبكي فيه مروءته، ولم أر أحدا

من أقربائه لإبلاغه العزاء، وذهبت لمتعهد الفراشة الحاج جاد لإقامة السرادق لكنه أبلغني أن شخصا لا يعرفه قد دفع له مبلغ خمسمائة جنيه تكاليف الجنازة والسرادق والفراشين.. إلخ».

«وشيعُت جنازة المرحوم الرائد الفنان سليمان نجيب نيابة عن الرئيس عبد الناصر، وعلمت فيما بعد أن الشخص الذي تطوع للإنفاق على تشييع جنازة الفنان هو المرحوم محمد سلطان باشا.. رحمه الله ورحم الله الفنان العظيم».

***

٣٣

وفي مذكرات صلاح الشاهد فقرة سينمائية لا ينبغي أن نحرم قارئنا منها، وبخاصة أنها تعيد الفضل في ترتيب مكتب رئيس الوزراء على نحو ما هو عليه إلى زيارة المخرج العالمي سيسيل دي ميل لمصر، وإن كنت لا أستطيع ابتلاع تفصيلات جزئيات هذه القصة كلها ، فقد يكون صحيحا أن المكتب الذي يخص رئيس الوزراء هو نفسه مكتب سعد زغلول، لكننا نعرف أن مقر رئاسة الوزراء نفسه قد تغير، وأن «استيطان» المجلس في مقره الحالي في قصر الأميرة شويكار لم يحدث إلا على يد مصطفى النحاس باشا الذي اشترى هذا القصر لمجلس الوزراء من مالكته الأميرة شويكار:

«في أثناء زيارة سيسسيل دي ميل المخرج العالمي للقاهرة لتصوير مشاهد فيلم «الوصايا العشر» قابل الرئيس جمال عبد الناصر ومعه المصور الفوتوغرافي في ٩ من ديسمبر ١٩٥٤م».

«وأذكر أن مكتب الرئيس كان موضوعا على يسار الغرفة، وكان لهذا المكتب تاريخ طويل في صفحات الجهاد المصري، فقد جلس إليه سعد زغلول رئيسا لأول

وزارة شعبية بعد انتخابات سنة ١٩٢٤م، بل إن الزعيم العظيم سعد زغلول وقع على نفس المكتب شيكا بنصف مليون جنيه إثر اغتيال السير لي ستاك (سردار الجيش المصري سنة ١٩٢٤م)، وهي واقعة معروفة في التاريخ المصري».

«ولكن وضع المكتب لم يرق في عين المخرج الأمريكي، وأصر لإتمام تصوير الرئيس عبد الناصر في فيلم ملون أن يوضع المكتب في صدر الغرفة».

«ونقل المكتب فعلا، وكان وراء المكتب نافذة أسدل عليها ستار من القطيفة البنية ووضع على يمين الرئيس العلم المصري، وتم التقاط عدة صور اختار منها الرئيس الراحل صورتين، وظل المكتب إلى الآن في موضعه الجديد الذي اختاره المخرج العالمي».

***



وفي مذكرات صلاح الشاهد أيضا فقرة تشكيلية لا ينبغي أن نحرم قارئنا منها فهو يروى أنه كان صاحب الفضل في إنقاذ حياة عدد من اللوحات الفنية في قصر القبة:

«وفي ٢٤ من فبراير سنة ١٩٥٧م عقد بالقاهرة مؤتمر ضم جلالة الملك سعود ملك المملكة العربية السعودية، والملك حسين ملك المملكة الأردنية الهاشمية، ودولة السيد صبري العسلي رئيس وزراء سوريا، والرئيس جمال عبد الناصر رئيس جمهورية مصر، وكان المؤتمر أول مؤتمر أقيم بقصر القبة الذي ظل مهجورا منذ قيام الثورة حتى هذا التاريخ».

«وكانت الفترة التي أعد فيها القصر لاستقبال الضيوف وجيزة جدا، فالموعد المحدد كان بعد يومين ولم يكن بالقصر إلا جناحان لا يسمحان بنزول أكثر من

اثنين من الضيوف ومعهما الحاشية، وكان الجناحان مخصصين للملك فاروق والملكة ناريمان والأميرات».

«وكان من المتعين إعداد القصر لاستضافة الضيوف الثلاثة، مما دعا إلى تغيير بعض الغرف ونقل ما فيها إلى مكان آخر وتجهيزه للمبيت».

«ومن الطريف أنني عندما دخلت قصر القبة للإشراف على إعداد هذا المؤتمر فوجئت بشرذمة من جنود بلوكات النظام يحمل كل منهم لوحة زيتية نادرة لكبار الفنانين العالميين ليضعها في سيارة لوري كبيرة تتبع البلوكات، فجن من جنوني وسألتهم بلهفة: إلى أين أنتم ذاهبون؟».

«فقالوا: كلفنا الصاغ مجدي حسنين بحمل هذه اللوحات إلى قصر عابدين لبيعها في المزاد العلني».

«ولم أتمالك إلا أن أحول بينهم وبين ذلك، وكلفتهم بإعادتها إلى أماكنها».

***

٣٥

ربما جاز لنا أن نتوقف لنسأل عن مدى سلطة مجدي حسنين في ذلك الوقت؟ ونحن نعرف أنه كان في تلك الفترة مسؤولا عن مديرية التحرير، فهل استبقي الإشراف على القصور بالإضافة إلى مسؤوليته، أم أن الأمر كان يسير بقوة الدفع باعتباره من أصحاب الكلمة في ذلك العهد، أم أن صلاح الشاهد يقصد ضابطا آخر وأخطأ في اسمه.. الله أعلم.

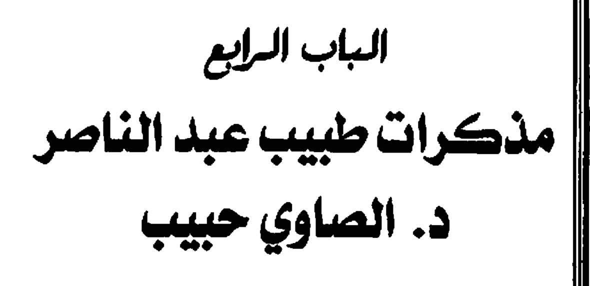
ومع هذا فلنقرأ ما يستطرد به صلاح الشاهد من حديث حول هذه الواقعة مما يرويه عن تقدير عبد الناصر والبغدادي لقيمة الفن :

«وجدير بالذكر أن المرحوم الأستاذ عطا عفيفي بك، وكان رئيسا لجمعية الفنون

الجميلة، زارني يوما بالقصر ورأي هذه اللوحات وأدرك قيمتها الغالية،وعرض على أن أبلغ الرئيس جمال عبد الناصر باستعداده لنقل هذه اللوحات تحت إشراف الدولة وبيعها في الخارج بما لا يقل عن مليونين من الجنيهات الإسترلينية، لكن الرئيس جمال عبد الناصر رفض هذا العرض وأمر بإبقاء الحالة التي كانت عليها هذه اللوحات .

«وأذكر أن السيد عبد اللطيف البغدادي اعتاد عند دخوله الصالون الملحق بقاعة الاجتماعات أن يقف طويلا متأملا إحدى هذه اللوحات البديعة النادرة، مبديا إعجابه لما يتبدى فيها من فن » .

*****



الباب الرابع

مذكرات طبيب عبد الناصر

د. الصاوي حبيب

١

هذه مذكرات خفيفة الطابع، كتبها طبيب قدر له أن يكون طبيبا خاصا لرئيس الجمهورية ما بين ١٩٦٧ و١٩٧٠، لكنه آثر في عنوان كتابه أن يختصر حياته كلها في هذه السنوات، فجعل هذا الوصف بديلًا مساويًا لاسمه، مع أنه كان في وسعه أن يضعه في جملة من قبيل «كنت طبيبًا لعبد الناصر»، أو «عملت طبيبًا لعبد الناصر»، لكنه آثر أن يفعل بنفسه هذا الذي فعله، ولست أدري مَنْ الذي حسّن له هذا الرأي أو المشورة، لكنني أعرف بكل تأكيد أن هذه الصفة لم تكن لتضيع من صاحب هذه المذكرات لو أنها أغفلت من العنوان أو لو أنها نشرت تحت أي اسم آخر بعيد عن هذه الصفة، حتى لو كان هذا العنوان عاما جدا من قبيل «قصة حياتي» أو «حياة طبيب» أو «سيرة حياتي» أو «مشوار حياتي».. إلخ، وحتى لو أراد صاحب المذكرات أن يبرز اسمه في المذكرات وسماها «مذكرات الدكتور الصاوي حبيب» فإننا كنا سنذكر أو نتذكر أو نكتشف بعد سؤال أن الصاوي هذا هو ذلك الطبيب الذي عمل بالقرب من عبد الناصر.

وعلى كل الأحوال فإن الاعتزاز بعبد الناصر خلق جميل، كذلك فإن الاعتزاز بالعمل إلى جواره خلق جميل أيضاً، واختصار الحياة في السنوات التي عاشها الإنسان بالقرب منه شيء جميل أيضاً، وربما كان هذا كله أجمل من هذه المذكرات التي لا تخلو من جمال.

***

٢

يكاد الدكتور الصاوي حبيب يدلنا على أنه كان يحسب خطواته وقيمته، بل خطورته في الحياة العملية والعامة بالمادة، والمادة وحدها، وهو يفسر دوافع الانتقالات التي انتقل فيها في حياته العملية بهذه المادة، ومن الحق علينا أن نشيد بشجاعة الاعتراف هذه، لكننا في الوقت نفسه كنا نريد من الذي امتلك شجاعة الاعتراف أن يمتلك شجاعة أخري وهي شجاعة تقييم مسار حياته الذي مضى به وفيه على نحو ما يصوره الاعتراف، كنا نريد منه أن يدلنا على مدى اقتناعه بأن تفكيره الذي دفعه إلى اختيار ما اختار من طرق كان صائباً، وإذا لم يكن الأمر كذلك فلابد أنه في حاجة إلى اعتراف آخر بخل به علينا.

انظر إلى هذا الطبيب الذي واتاه الحظ للعمل في مستشفي الجلاء، وهو يمضي في هذا العمل ناجحًا لكنه لسبب بسيط جدًا يندفع إلى التفكير في الالتحاق بالخدمات الطبية في القوات المسلحة، وإذا بزميله الأكبر منه ينصحه فيرد عليه ردا ماديا يظن نفسه (بعد كل هذه العقود من السنوات) كان مصيبا فيه دون أن يدري أن هذا الرد كفيل بأن يسيء إليه الآن، كما أساء بالفعل إلى مسار حياته من قبل:

«... وأذكر أن رئيس قسم الجراحة بمستشفي الجلاء عندما علم بأنني سأنتقل إلى القوات المسلحة قال لي: إن فرصتي في وزارة الأوقاف أفضل في التدريب، فأجبته بأنني قد وجدت أنه بعد قضاء أكثر من عشرين عاما هي الفرق بيني وبينه في وزارة الأوقاف قد أصل إلى رئيس قسم وأتقاضى نفس المرتب الذي كان يتقاضاه سيادته، لذلك فقد اختصرت الطريق (كان يتقاضى ٣٦ جنيها وكنت أتقاضي كملازم أول ٣٨ جنيها)».

هكذا أورد الدكتور الصاوي القصة دون أن يعلق عليها، وكأنه أوردها وترك لنا فرصة التعليق عليها، بينما القصة لا تحتاج إلى تعليق.

***

٣

ومن العجيب أن ينهج هذا الطبيب القديم هذا النهج في تفكيره بينما كان هو نفسه قد رأي بعيني رأسه صورة من صور المرونة البيروقراطية التي مكنته من الحصول على دبلوم الجراحة بينما كان مشغولًا بالخدمة الشاقة:

«... وكنا ننهض في الساعة السادسة صباحًا ولا نخلع أحذيتنا حتى الساعة الثامنة مساء، فلم يكن أمامي إلا الاعتذار عن دخول الامتحان حتى لا تحتسب عليّ إحدى مرات دخول الامتحان ، إذا لم أدخل الامتحان بدون سبب، وكلما اقترب ميعاد الامتحان يزداد توتري وقلقي، ولم أجد مفرًا من محاولة دخول الامتحان بدلا من التردد والقلق وإضاعة فرصة قد تنجح ولو بنسبة ١٪».

«ولكي أستعد للامتحان ذهبت إلى المستشفي، وكان يوجد بأنفي مشكلة قديمة تم عمل كيّ فيها عدة مرات، وتم حجزي بالمستشفي إلا أنني وجدت أن مراجعة الدروس بالمستشفي غير ممكنة، وبالتالي فقد أقدمت على خطوة مفيدة، إذ كنت أبيت بالمستشفي حتى يمر الأطباء في الصباح ، ثم أذهب إلى فندق في ميدان العتبة لأظل فيه طوال فترة النهار أراجع دروسي حتى المساء، فأتوجه إلى المستشفي للمبيت، وكنت بذلك أغرب نزيل بالفندق، أقيم فيه نهارا، وأغادره ليلا، وظللت على هذا المنوال لمدة أكثر من أسبوع إلى أن أخرجني الطبيب المسؤول عني من المستشفي يوم أربعاء وامتحاني كان يوم السبت وأحالني للقومسيون الطبي الذي منحني إجازة عشرة أيام ، ودخلت الامتحان، ومنذ أول يوم وضح لي أن إمكانية

نجاحي مرتفعة جداً، فجميع أجزاء الامتحان كنت أؤديها بتوفيق ويسر، إلا أن العشرة أيام انتهت قبل أن ينتهي الامتحان، وكان الله رحيما بي فامتدت الإجازة ثلاثة أيام كانت كافية لأداء الامتحان والعودة إلى الكلية الحربية، وهناك أدركت أن الإجازة لو كانت امتدت أكثر من ذلك لكانت المدة التي أمضيتها في الكلية الحربية أقل من الحد الأدنى المطلوب، ولما كان هناك مفر من أن أعيد ثلاثة شهور أخري في الكلية الحربية، ولم يعلم أي من زملائي أو أي شخص كان في الكلية الحربية بما حدث، وانتظرت نتيجة امتحان دبلوم الجراحة على أحر من الجمر».

«وعندما ظهرت نتيجة الامتحان أحسست بسعادة غامرة، فقد كانت المرة الأولى، ولعلها الأخيرة، التي يحصل فيها جامعي على شهادة عليا خلال فترة وجوده في الكلية الحربية».

***



ومع هذا التعبير الملتفت إلى الظواهر بأكثر من التفاته إلى الأعماق، فإن الدكتور الصاوي حبيب يجيد وصف مشاعره تجاه مرحلته الأخيرة في الحياة:

«... وأتأمل حياتي فأجد انتصاراتها قليلة، وهزائمها كثيرة، ونجاحاتها قليلة، وإخفاقاتها كثيرة، وليلها طويل، وفجرها قصير، ومع ذلك فالأخيار والأصدقاء والأحباء مازالوا حولنا، ومازالت الشمس تشرق، وأتبع قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الملك] صدق الله العظيم.

وقبل هذه الفقرة مباشرة الدكتور الصاوي حبيب يقول:

«... وإذا كان عليَّ أن أستمر فلابد من العمل والحركة بقدر الإمكان مع

استمرار التفكير والنشاط العقلي، وربما كان في الأصدقاء والقراءة والكتابة ووسائل الإعلام المسموعة والمرئية ما يجعل الإنسان متفاعلا مع البيئة، ومتواصلا مع الحياة».

***



ونأتي إلى مرحلة حياته التي خصص صاحب المذكرات كتابه للحديث عنها، ومن الإنصاف أن نبدأ فنورد رأي الصاوي حبيب الذي يلخص به قصة حياته مع الرئيس عبد الناصر:

«... وكان فريق العمل الذي يشرف على رعايته الصحية متجانسا ومتعاونا، وعلى أكبر قدر من الكفاءة، فكنت سعيدا بتقبل تعليماته وتوجيهاته، لكن الرئيس في الوقت نفسه كان يجري، وكنا نحن نلهث وراءه ونرى أنه يفعل ذلك من أجل وطنه وأمته، فعلينا أن نحذو حذوه ونحاول تخفيف آثار هذا الجهد الجبار على صحته».

«وفجأة توقف كل شيء وانفرط العقد، وساد الساحة سكون عميق».

«وكان غريبا أن أكون وسط مجموعة ممن كانوا يعملون مع عبد الناصر، وتصادف أن قابلنا مَنْ لا نعرفهم في الطريق فوجدت أحدهم يقول لنا: «راحت عليكم»، فرددت قائلا: إنها لم تأت إلى لتذهب عني، فلم تكن بالنسبة لي إلا مسؤولية كبري، وتكليفا قبل أن تكون تشريفا».

***



ويدلنا الصاوي حبيب على أن حالة الرئيس جمال عبد الناصر الصحية لم تكن

على ما يرام منذ ما قبل ١٩٦٧م، وأنه شهد بنفسه الرئيس وهو يعاني في يوم من أيام ١٩٦٤م معاناة شديدة، بل إنه كان الطبيب الذي تولي علاج الرئيس في ذلك اليوم، ومن الطريف أن نقرأ اليوم ما يسجله الصاوي حبيب من واقعة مثل هذه قدر لها أن تطمس تمامًا في الإعلام وفي التاريخ:

«... في مايو ١٩٦٤م حضر رئيس اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي نكيتا خروشوف لزيارة مصر، وكان متوجها لافتتاح مزرعة نموذجية في مديرية التحرير ساهم الاتحاد السوفيتي في استزراعها كهدية لشعب مصر ومثال لاستزراع الصحراء».

«وصاحبت ركب الرئيس عبد الناصر الذي اتجه من الإسكندرية إلى الطريق الصحراوي، وكان بصحبته في السيارة المشير عبد الحكيم عامر، وكنت أركب في سيارة الحراسة بمصاحبة بعض ضباط الحراسة الخاصة، ومصور الرئيس الخاص السيد حسن دياب، وكان الوقت صيفا والجو شديد الحرارة، وكان هناك رتل كبير من السيارات يتبع ركب الرئيس يشمل عربات لكبير الأمناء، وكبير الياوران، والوزراء المرافقين، فضلا عن عربات الأمن والمرور، وعربة إسعاف مجهزة، وكان هناك بعض الطائرات التي تمرق في السماء بين حين وآخر، وبعد أن قطعنا أكثر من ثلث المسافة توقفت السيارات التي كانت تسبقنا ونزل السيد محمد أحمد سكرتير الرئيس واتجه إلى الخلف وتقدم من السيارة التي كنت أستقلها ثم طلب مني مصاحبته ومعي حقيبة الطوارئ،وأخبرني بصوت منخفض بأن الرئيس يشعر ببعض التعب وعليّ عمل اللازم، وتوجهت إلى سيارة الرئيس وكان قد شعر بهبوط وغثيان مع بعض العرق، فقمت بالكشف عليه وإعطائه الدواء اللازم وطلبت منه العودة إلى الاستراحة في برج العرب، وطلبت من السيد محمد أحمد إبلاغ طبيبه الخاص الدكتور ثروت لمقابلته في الاستراحة، وهو ما حدث بالفعل، وعدت أنا

أيضا إلى الإسكندرية، وكان هذا هو اللقاء الأول مع الرئيس جمال عبد الناصر، وقد أدهشتني استجابته الفورية لتعليمات الطبيب ودون مناقشة أو تردد».

***



ويشير الصاوي حبيب إشارة ذكية إلى عادة الرئيس عبد الناصر في الإكثار من العمل في المساء:

«عندما عدنا إلى القاهرة اقترحت على الرئيس أن يعقد مجلس الوزراء في الصباح بدلا مما كان متبعا من عقده في المساء إلى ما بعد منتصف الليل، كما طلبت عدم السهر في القيادة، لكنه رد عليّ قائلا بأن نشاطه الذهني والفكري يتوهج في المساء، وأن هذه طبيعة ولا يمكن تغييرها».

«وقد استمر العلاج دون أن يغير الرئيس نمط حياته القائم على العمل الشاق المستمر،وأغلبه ليلا، مع السفر المتواصل واللقاءات الجماهيرية، والاجتماعات الحاشدة، وعدم أخذ إجازات أو راحات، وهو ما يمكن أن نسميه إدمان العمل والقلق، وكانت جميع الظروف تمنع الرئيس من تغيير نمط حياته».

***



ويشير الصاوي حبيب إلى ما نكاد نعرفه جميعًا من أن الأطباء صارحوا الرئيس قبل وفاته بشهرين بحقيقة مرضه دون جدوى، لكن الجديد فيما يرويه الصاوي حبيب هو الإشارة الواضحة إلى العلامات القاطعة على تقدم مرض القلب الذي كان الرئيس مصابا به:

«وفي ٢ من أغسطس ١٩٧٠م أسفر الفحص الإكلينيكي عن تكافؤ عضلة القلب مع وجود صوت ثالث ضعيف ولغط انقباضي على القمة، وتم عمل تسجيل لأصوات القلب أكد ما وجد في الفحص الإكلينيكي، وتمت كتابة تقرير بذلك بإمضاء الدكتور فايز والدكتور زكي الرملي، وكان لابد أن يجتمع الفريق الطبي مع الرئيس، وفعلا عقد الاجتماع وكان في مدينة الإسكندرية في شهر أغسطس سنة ١٩٧٠م، وحضره الدكاترة: محمود صلاح الدين، وزكي الرملي، ومنصور فايز، وعلي البدري،وناصح أمين وأنا، وأبلغ الدكتور محمود صلاح الدين الرئيس بأنه توجد دلائل على عدم وجود تحسن في علاج عضلة القلب، ولابد أن يخلد الرئيس إلى الراحة ويغير نمط حياته، وفاجأ الرئيس المجتمعين بقوله: معنى هذا أنني لابد أن أغير هذه الوظيفة، وكانت الإجابة بلا رد وهي تشي عن طبيعة عبد الناصر التي لا يمكن أن تلين أو تنحني، وهو أنه لن يتوقف من تلقاء نفسه، ولن يسمح له الناس في مصر والعالم العربي بأن يتخلص من تحمل مسؤوليتهم، وإنما ستتمرد عليه أعضاء جسمه وتعلن العصيان ذات يوم، وعندها لا ينفع طب ولا أطباء.. ومتى؟».





ويلخص الدكتور الصاوي حبيب بطريقته التي كرر الحديث بها ما حدث يوم وفاة عبد الناصر:

«وفي الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر وصلتني رسالة تليفونية من سكرتيره الخاص المرافق له في المطار بأن الرئيس يطلب مني التوجه إلى منزله في منشية البكري لمقابلته هناك، وتوجهت على الفور من منزلي بوسط القاهرة إلى مقر الرئيس، ووصلت بعد ثلث ساعة تقريبا، وقابلتني السيدة حرمه خارج حجرة

النوم وأخبرتني أنه عاد من المطار وهو يشعر بالتعب، وأنها أحضرت له كوب عصير برتقال شربه منذ قليل».

«وتوجهت إلى حجرة النوم وكان الرئيس مستلقيا على السرير مرتديا بيجامته ورأسه مرتفع قليل، وقال لي: إنه شعر بتعب أثناء توديعه أمير الكويت في المطار وأحس أن قدميه تكادان لا تقويان على حمله، وعند فحصه لاحظت وجود عرق بارد على جبهته، كما كان وجهه شاحبا بعض الشيء، وكان النبض سريعا خيطيا يكاد ألا يكون محسوسا، كما كان ضغط الدم بالغ الانخفاض، وكانت أطرافه باردة».

«وأحسست في الحال بخطورة الموقف، وتوجهت فورا إلى حجرة مكتبه الملحقة بغرفة النوم أطلب من السكرتارية استدعاء الدكتور منصور فايز والدكتور زكي الرملي فورا، وأحضرت جهاز رسم القلب ، وكان موجودا بصفة دائمة في حجرة المكتب حيث كان من المعتاد عمل رسم قلب له يوميا منذ الجلطة السابقة [يقصد: الاحتشاء] في سبتمبر من العام الماضي، وذلك بجانب الأدوية والأدوات والأكسجين المعد لحالات الطوارئ».

«وفي الواقع شعرت بشيء من الخوف الغامض، ووجدت نفسي أدعو له بالشفاء، وقمت بعمل رسم القلب وبدأت العلاج، وحضر الدكتور منصور فايز بعد ثلث ساعة، والدكتور زكي الرملي بعد نصف ساعة، وأكدا خطورة الحالة نتيجة وجود انسداد جديد في الشريان التاجي، واستمر العلاج فترة من الوقت، لكن لم يكن هناك تغيير في رسم القلب الذي تم عمله من قبل إلا أن بعض التحسن ظهر في الكشف الإكلينيكي، وأخذ الدكتور منصور فايز يحادث الرئيس عن رغبته في زيارة الجنود على الجبهة، وأخبره الرئيس عن إمكانية التنسيق مع بعض الوزراء الذين كانوا قد اتفقوا على التوجه لزيارة الجنود».

«وفي الوقت نفسه كان الدكتور زكي الرملي يرقب الموقف عن كثب ولم أكن تابع الحديث، فقد كنت أفكر في الوضع الصعب الذي نحن فيه، ووجدته يعتدل قليلا ليفتح الراديو الموجود على الكومودينو بجوار السرير وقال : إنه يرغب في سماع خبر في نشرة أخبار الخامسة التي كانت قد بدأت منذ قليل، ولم يذكر هذا الخبر ولم يعرفه أحد حتى الآن، وظل يصغى إلى نشرة الأخبار حتى انتهت، وطلبت منه ألا يتحرك وأن يستريح، وكان قد أغلق جهاز الراديو ورد قائلا: أنا استرحت يا صاوي».

«وفوجئت برأسه يميل إلى الجانب فجأة، وفي الحال تحسست النبض فوجدته قد توقف فقمت بعمل تنفس صناعي وتدليك خارجي للقلب في وجود الدكتور زكي الرملي والدكتور منصور فايز، واستمرت هذه المحاولات حوالي ثلث ساعة دون جدوي».

«ولم أجد فائدة من الاستمرار، لقد توفي الرئيس عبد الناصر بالصدمة القلبية، وهي من أخطر مضاعفات انسداد الشريان التاجي، واستراح جمال عبد الناصر كما جاء في آخر عبارة قالها، استراح كما جاء في دعاء : «**اللهم اجعل الموت راحة لنا من كل شر**»، ومضيت إلى آخر الحجرة وفي داخلي شعور بالحزن والمرارة، وعلى السلم الداخلي في المنزل وجدتني أقول لمن وجدته في الخارج من أهل المنزل: «خلاص مفيش فايدة».

هكذا كان الدكتور الصاوي يصور نهاية عبد الناصر ليبرئ نفسه مما شاع وذاع من أنه أخطأ في علاج حالته بأن أعطاه حقنة مضادة للحساسية، أو بأنه لم يتنبه إلى حقيقة إصابة الرئيس بغيبوبة سكرية.. أو.. أو.. إلخ.

***

١٠

ويشير الدكتور الصاوي حبيب إلى بعض خصال الرئيس عبد الناصر على نحو ما لاحظها في الفترة التي عمل فيها بالقرب منه، ومن الطريف أن بعض هذه الخصال يبدو متناقضا مع ما شاع عن الرئيس في فترات سابقة من حياته.

وعلى سبيل المثال فإن الصاوي يصور الرئيس عبد الناصر وكأنه كان يقدر الأطباء في بوحهم بهمومهم الوطنية، أو على الأقل كأنه كان يجد لهم العذر في مثل هذا البوح والثرثرة،وكأنما يريد الصاوي حبيب بهذا أن ينفي ما شاع وذاع من ضيق عبد الناصر بآراء الدكتور أنور المفتي، وانظر إلى هذه الرواية:

«... وفي منتصف شهر فبراير ١٩٦٨م حضر الدكتور محمد فوده كبير أطباء العلاج الطبيعي في القوات المسلحة، وكان عائدًا من بعثة في إنجلترا، وأخذ يشرح بطريقة عفوية كيف أن الإنجليز يسيئون معاملة المصريين ويستهينون بهم عقب حرب يونيو، وعندما حاولت تخفيف وقع الكلام بعد انصراف الدكتور فودة علق الرئيس قائلا: إن الدكتور فودة طبيب حضر للكشف الطبي، وله أن يقول ما يشاء وينصرف، أما لو كان دبلوماسيا فيمكن محاسبته على ما جاء في الحديث».

وعلي صعيد آخر نرى الدكتور الصاوي حريصًا على أن يتحدث عن عناية الرئيس عبد الناصر بالتفاصيل البروتوكولية عناية خاصة، وذلك على عكس ما صور من توجهات الرئيس:

«وقد سمعته ينتقد السيد حسن التهامي أمين عام الرئاسة في محادثة تليفونية لأنه استأذن من الملك السنوسي، وكان لاجئا في مصر بعد ثورة ليبيا، في استعارة الكابينة المخصصة له في المنتزه لمدة يوم ليقيم فيها بصفة مؤقتة الملك حسين ملك الأردن في

ذلك الوقت، والذي كان في زيارة للقاهرة ويرغب في قضاء يوم في الإسكندرية، وكانت وجهة نظر عبد الناصر أن الملك السنوسي في وضع لا يسمح له بالرفض لأنه لاجئ في بلادنا، وكذلك انتقده في محادثة تليفونية لأن رئيس وزراء دولة آسيوية تمت استضافته في فندق هيلتون النيل مع أنه سبق استضافته في أحد القصور قبل ذلك مما يضعه في منزلة أدنى في الزيارة الثانية عن منزلته في الزيارة السابقة».

ربما جاز لنا أن نعلق هنا تعليقًا بريئًا بالسؤال عن السرّ في أن الدكتور الصاوي لم يسمع من انتقادات عبد الناصر إلا تلك التي وجهها إلى حسن تهامي، وكأنما لم يوجه مثل هذه التعليقات لمناظري التهامي!!

***

١١

كذلك يحدثنا الدكتور الصاوي حبيب عن سعة صدر الرئيس وتقبله لانشغال العاملين معه عن أن يكونوا بصحبته طوال اليوم:

«وقد سأل عني يوما ذات مساء، وكنت قد مررت على أحد الزملاء في عيادته الخاصة وأمضيت عنده بعض الوقت ولم أعلم بذلك (أي: بسؤال الرئيس) إلا بعد أن رجعت إلى المنزل متأخرا، وفي الصباح ذكرت له أنني لم أتوقع أن يطلبني فرد عليّ قائلا: يكفي فقط أن تترك رقم التليفون حيث تكون كما يفعل أي مفتش صحة».

وهذه قصة أخرى تدل على سعة صدر الرئيس عبد الناصر من ناحية، وإصابته بقدر من الوسوسة تجاه العقاقير الطبية من ناحية أخرى:

«كما حدث أيضًا أن أعاد لي علبة مرهم جلد أرسلته إليه لأن تاريخه قد انتهى، وقد وجدت هذا التاريخ بصعوبة، وفعلا استبدلتها من الصيدلية، وعندما قابلته لم يشر إلى الموضوع من قريب أو بعيد».

١٢

ويتحدث الصاوي حبيب كذلك عن فهم عبد الناصر لنفسيات العاملين معه ومدى ما كانوا يفيدون به من وجودهم بالقرب من الرئيس، مقدمًا قصة طريفة عن الجيار الذي عرف بحرصه على أن يصور نفسه قريبًا جدًا من الرئيس عبد الناصر:

«... في أثناء الذهاب إلى حمامات المياه الطبيعية للعالج في تسخالطوبو كان يلاحظ أن السيد محمود الجيار يتقرب منه أثناء التقاط الصور في الطريق بواسطة الصحفيين، فعلق على ذلك موجها نظر الروس المرافقين لنا أن السيد محمود الجيار يقترب لكي يظهر في الصور بجواره حيث ستفيده هذه الصور في الانتخابات التي كانت ستجري بعد حوالي شهرين».

بل إن الصاوي حبيب يروى لنا واقعة تدل على أن عبد الناصر كان منتبهًا إلى أقصى حد ممكن إلى طبيعة وحقيقة ثروات العاملين بالقرب منه:

«... وذكر لي الرئيس عبد الناصر في معرض التعليق على شراء السيد محمود فهيم سكرتيره الخاص حديقة فاكهة على النيل قرب الجيزة من وزارة الأوقاف عن طريق المزاد العلني، أنه (أي عبد الناصر) تسبب بطريق غير مباشر في شراء هذه الحديقة، لأن النقود التي اشتري بها محمود فهيم الحديقة كانت ثمن قطعة أرض حصل عليها في أوائل الثورة بمنطقة المعمورة، وعندما أراد أن يبيعها وكان قد أصبح سكرتيرا للرئيس عبد الناصر، سأل عبد الناصر عن اسم المشتري والثمن المعروض لشرائها فلم يتم البيع وعموما فقد أتاح عدم بيع الأرض في ذلك الوقت الفرصة لارتفاع ثمنها فيما بعد ذلك بعشر سنوات بما يكفي لشراء حديقة الفاكهة».

***

١٣

وفي مقابل هذا كله فإن الصاوي حبيب لا يزعم حظوة كبيرة عند عبد الناصر:

«وقد حدث ذات يوم وكان وزير الصحة قد توفي أن سألني عمن أرشحه للعمل كوزير للصحة فكرت له أحد الزملاء، ولكنه أبدى عليه بعض التحفظات وعين آخر، وكانت المرة الأولى والأخيرة التي سألني فيها مثل هذا السؤال».

ويلخص الصاوي حبيب طابع النظام في حياة عبد الناصر بطريقة شيقة:

«ومن دلائل النظام في حياة عبد الناصر أنه كان عندما يستيقظ في الصباح ويريد الشاي يدق الجرس فيدخل عليه السفرجي دون أن يسأله بصينية عليها الشاي والعسل، وعندما يدق الجرس ثانية فمعنى هذا أنه يطلب طبيبه للدخول، وما أن يدق الجرس في المرة الثالثة حتى يدخل الحمام ويدخل السفرجي ومعه آخر يقومان بتنظيف الحجرة وترك غيار لملابسه الداخلية على السرير، وكان يترك الحمام بعد ثلث ساعة تقريبا فيجدهما قد غادرا الحجرة ويقوم بارتداء ملابسه والاستعداد للنزول إلى حجرة المكتب أو بدء مقابلاته، وعندما كان يدق الجرس للمرة الرابعة كان معنى ذلك أن يطلب الإفطار، وكان يتكون من الجبنة البيضاء وبعض الفول والزبادي ونبات الأفوكادو أحيانا، وكذلك كان يطلب السيدة قرينته للإفطار معه، كان هذا يحدث يوميا بصورة متكررة أثناء تواجده في القاهرة».

***

١٤

وهو يصور بعضا من الخصائص المميزة لنظام الحكم في ذلك العصر وملامح عقلية الرئيس عبد الناصر في الحرص على رد المظالم، وذلك في مقابل عقلية على

صبري في تعويق رد المظالم رغم علمه بالظلم بدعوى أن هناك ما هو أهم، كذلك فإنه ينتهز الفرصة للإشادة بحامد محمود مدير مكتب على صبري وحرصه على فعل الخير:

«... في أحد الأيام حضر إلى مكتبي أحد وكلاء شركة دواء أجنبية ممن يترددون على الأطباء بصفة مستمرة للإعلان عن منتجاتهم، وقدم لى نفسه باسم موسى رستم إبراهيم، وذكر لى أنه وضع تحت الحراسة بسبب اسمه الذي يتشابه مع أسماء اليهود، وفي ذلك الوقت كان يجري تمصير الشركات الأجنبية، ومنها شركات الدواء، وفي قرارة نفسي لم أقتنع بإمكانية حدوث ذلك، ولكنني اتصلت بالسيد حامد محمود مدير مكتب رئيس الوزراء السيد على صبري وذكرت له ما حدث، وبعد مرور يوم واحد اتصل بي السيد حامد محمود وأخبرني أن ما ذكره الرجل حقيقي وأن رئيس الوزراء أرجأ النظر في رفع الحراسة عنه لوجود موضوعات أهم، ولكن السيد حامد محمود وكان ميالا بطبيعته لفعل الخير أوجد الحل وأخبرني أن على الرجل أن يتصل بالسيد محمد أحمد أو السيد سامي شرف، والأول سكرتير خاص السيد الرئيس، والثاني مدير مكتبه، لإبلاغه بالموضوع بدلا من الانتظار مدة طويلة لرفع الحراسة عن طريق رئيس الوزراء، وفي اليوم الثاني اتصل بي السيد موسى رستم وأبلغني أنه اتصل بالسيد سامي شرف ، وأبلغه بما حدث، وأن السيد سامي شرف اتصل به بعد قليل ، ليخبره أن الرئيس أمر برفع الحراسة عنه، وقد أحسست بارتياح لأنني ساهمت في تصحيح وضع هذا الشخص».

***

١٥

ويصور الصاوي حبيب انتقاله للعمل في رئاسة الجمهورية تصويرا دقيقا على مراحل، فهو يذكر أنه فكر في هذا الانتقال كي يستريح من قرحة الاثني عشر، كما يذكر في فقرة أخرى أن أركان حرب الخدمات الطبية (أي الضابط الذي كان يتولى هذه المسؤولية الإدارية) كان يظن أن بوسعه أن يعطل نقله لكن الأوامر جاءت من أعلي فسارع إلى تنفيذها(!!)

وهو يصور كيف أمكن له عن طريق الواسطة أن يصل إلى العمل في رئاسة الجمهورية، والواقع أن قصته تستمد من صدقها القدرة على تصوير الموقف تصويرا بديعا، وهذه هي فقراته:

«... وبدأت أبحث عن عمل جديد داخل القوات المسلحة يتيح لي قدرا من الراحة النفسية والبدنية، وعلمت أن أحد الزملاء الذي كان يعمل طبيبا في الحرس الجمهوري نقل في بعثة لإنجلترا وكان حاصلا على دبلوم جراحة، فتقدمت للدكتور أحمد ثروت مدير قسم طبي برئاسة الجمهورية طالبا انتدابي للعمل بدلا من الزميل المنقول، وكان عمي الأستاذ إبراهيم محمد حبيب محافظ الشرقية هو الذي حدد لي الميعاد عن طريق صديقه الأستاذ حسين رأفت وكيل الداخلية ونسيب الدكتور أحمد ثروت، وبالفعل اختارني الدكتور أحمد ثروت من بين مَنْ تقدموا وتم انتدابي للعمل في رئاسة الجمهورية، وقد أشعرني هذا النقل بمزيد من الحمد والشكر لله».

«عندما علمت أنه تم اختياري للعمل في رئاسة الجمهورية اقترح أحد الزملاء كإجراء شكلي أن أستأذن الخدمات الطبية في النقل فطلبت منه أن يقابل أركان

حرب الخدمات الطبية بدلا مني لطلب السماح بنقلي، إلا أن أركان حرب الخدمات الطبية رفض الفكرة تماما وقال حقا يراد به باطل : إنني حاصل على أكثر من دبلوم، ولا يمكن الاستغناء عني، ولم يمض أكثر من يوم إلا وكانت قد وصلت للخدمات الطبية إشارة من القيادة العامة للقوات المسلحة بنقلي إلى رئاسة الجمهورية، وكان أول مَنْ سعى لتنفيذ أمر النقل مَنْ كان يقول إن هذا لن يحدث».

***



وهو يصور سهولة العمل في الرئاسة تصويرا طريفا لا يقلل من إعجاب القراء بجاذبية هذا العمل، وإن بدا الأمر عنده غير ذلك:

«كان الانتقال من القوات المسلحة إلى رئاسة الجمهورية في ١١ من فبراير ١٩٦١م أشبه بالانتقال من مدينة إلى قرية ، فالعمل هادئ ، والمرضى أقل ، ولا توجد جراحات، وإذا وجدت فهي تحول إلى المستشفيات».

«كان العمل محدودا ومتنوعا ومشوقا، وكان يشمل الكشف على المرضى من جنود وضباط وموظفين يعملون برئاسة الجمهورية، وكذلك مرافقة رئيس الجمهورية في تنقلاته الداخلية بالتناوب مع اثنين من الزملاء».

«وبالإضافة إلى هذه الأعمال الروتينية، كان العمل يشمل حضور المآدب الرسمية، والحفلات، والاحتفالات الرسمية أولا لمواجهة أي طوارئ طبية، وثانيا للتأكد من سلامة الأغذية والمشروبات، وبالإضافة إلى ذلك كان العمل يشمل مرافقة كبار الزوار من ملوك ورؤساء، وقد أتاح لي هذا زيارة جميع المتاحف والأماكن الأثرية والسياحية والمصايف والمنتجعات والمصانع والإنشاءات المهمة، مع الإقامة في أفخم الفنادق والقصور في جميع أنحاء مصر».

ومن العجيب أن أثر هذه الزيارات جميعا لم يفرض نفسه على هذه المذكرات ولا على صاحبها من قبل على نحو ما سنرى فيما يلي .

***

١٧

ونأتي إلى فقرة كشف فيها الدكتور الصاوي حبيب بدون قصد عن ضجره من الفن وملله منه، وهي فقرة معتادة ، للأسف ، في حديث كثير من المهنيين المصريين الذين يتصورون ضجرهم بالفن شيئًا يستحق الفخر والإثبات، بينما كان في وسعهم أن يتجاوزوا عن الفخر بمثل هذه الصفات السلبية ولا نقول الأخلاق السلبية:

«... وكنا نحضر الاحتفال الكبير بعيد ثورة ٢٣من يوليو الذي كانت تقيمه القوات المسلحة وتغني فيه أم كلثوم وعبد الحليم حافظ وأحيانا محمد عبد الوهاب وغيرهم من مشاهير المغنين، ولم يكن حضور هذا الاحتفال بالتناوب مع زملائي موضع ترحيب مني، فقد كنت وما أزال لا أقبل على مثل هذه الحفلات وأشعر بملل من سماعي الأغاني ثلاث ساعات، وإن كنت في بعض الأحيان أطرب لسماع الموسيقي والألحان أكثر من الغناء، ولذلك كنت أفضل الجلوس في الصفوف الخلفية في مثل هذه الحفلات».

***

١٨

وعلي هذا النحو من تجاهل قيمة الفن والأعمال الفنية نجد الصاوي حبيب لا يرحب حتى في العلم وفي الطب بصورة من صور التقدم التكنولوجي، معتقدا عن حسن نية أن بلاده لا تحتاج هذا التقدم، ومعتقدا أن أوضاع وطنه مثالية في التوافق مع نظمها، بينما الحقيقة التي نعرفها جميعًا هي أن هذه النظم تتطلب قدرًا من الرقي

الذي لاشك في حاجتها إليه.

ومن الجدير بالذكر قبل أن ننقل فقرته أن نذكر أنه يتحدث عن فترة تدرب فيها في الولايات المتحدة الأمريكية حيث يتاح تشخيص رسم القلب بالكمبيوتر مع الرسم نفسه ويترك للأطباء من جيلين قراءة الرسم وتصحيح التشخيص الذي استنتجه الكمبيوتر، وقد أفاض كاتب هذه السطور في الحديث عن هذه التجربة الجميلة في كتابه «شمس الأصيل في أمريكا»، لكن الدكتور الصاوي يرى المسألة من زاوية أخرى ويقول:

«حدث أكثر من مرة أن قمت بتصحيح تشخيص رسم القلب الذي سجله الكمبيوتر، وعندما كثرت ملاحظاتي وجدت أحد الأطباء من خارج المستشفى يطلبني لكي أقابله في مكتبه خارج المستشفى، وكان يتبع على ما أتذكر السلطات الصحية، وعندما قابلته علمت أنه المسؤول عن التشخيص الذاتي لرسم القلب بالكمبيوتر، وأنه مصمم البرنامج الذي يتولي متابعة الإشراف عليه، وأخبرني أنه علم بملاحظاتي وسيعمل على تلافيها، ولكنه أخبرني أنه مستعد لعمل برنامج يطبق في القاهرة لتشخيص رسم القلب بالكمبيوتر، وأن هذا البرنامج يعني الاستغناء عن استخدام مئات الأطباء في مراجعة قراءة رسم القلب الذي يجري في المستشفيات في القاهرة، فأخبرته بأن المستشفيات في الولايات المتحدة تجري رسم القلب لجميع مَنْ يدخلون المستشفى، ونحن في مصر نجري رسم القلب لمرضي القلب وبعض مرضي الباطني فقط، وهذا لا يحتاج لكثير من الأطباء لمراجعة تشخيص رسم القلب بالكمبيوتر، وكذلك أخبرته أن عدد الأطباء عندنا يكفي جدا لمراجعة الرسوم، فالرسوم قليلة نسبيا، والأطباء عددهم أكثر بخلاف الحال في الولايات المتحدة، فالرسوم كثيرة، والأطباء أقل، وبالتالي فنحن في مصر في غير حاجة لمراجعة تشخيص رسم القلب بالكمبيوتر».

١٩

ويشير الدكتور الصاوي حبيب إلى تفهم كبار العاملين في رئاسة الجمهورية لقيمة العلم، ضاربا المثل في ذلك بالرئيس حسني مبارك نفسه حين كان نائبًا للرئيس:

«... وصلتني دعوة للحضور بقسم القلب من الدكتور جوزيف برلوف رئيس القسم في جامعة بنسلفانيا، فتقدمت إلى رئاسة الجمهورية للموافقة على السفر، ووافق السيد حسن كامل رئيس الديوان، ولكنني فوجئت بأن نائب الرئيس السيد حسني مبارك، وكان مسؤولًا عن رئاسة الجمهورية، يصدر قرارًا بمنع السفر للخارج لجميع موظفي الرئاسة لترشيد الإنفاق، لكنه استثناني من هذا القرار، وكنت الوحيد الذي وافق على سفره، وأعتقد أن السبب أنها كانت زيارة علمية».

وقبل هذا يشير الصاوي حبيب إلى موقف مماثل وقفه معه عبد المجيد فريد أمين عام رئاسة الجمهورية:

«... أذكر أنني طلبت من السيد عبد المجيد فريد أمين عام رئاسة الجمهورية شراء كتب علمية فرحب بذلك وكتب أمرًا في الحال بخط يده على ورقة تحمل شعار رئاسة الجمهورية بشراء كتب لمكتبة الرئاسة في حدود مبلغ ٢٠٠ جنيه، وقمت بشراء الكتب في اليوم نفسه وتمت الإجراءات بعد ذلك (مبلغ ٢٠٠ جنيه في ذلك الوقت كان كبيرا)، وكذلك حدث الشيء نفسه مع السيد حامد محمود مدير مكتب رئيس الوزراء الذي اكتفي بمعرفة اسم الكتاب الذي طلبته وأحضره لي بعد يوم، بل إنني اشتركت في اثنتين من المجلات الطبية العالمية في ذلك الوقت بسهولة ويسر، وكان منطق السيد عبد المجيد فريد أن ما يرفع مستواي يفيد مرضاي، وأن

صرف النقود في هذا المجال أجدى من صرفها في مجالات أخرى».

***

٢٠

يصور كتاب الصاوي حبيب كثيرًا من أوضاع مصر الصحية تصويرًا دقيقا، ونحن حين نقرأ هذا التصوير نرى أنه من ذلك النوع في الوصف الذي لم يقصد إليه صاحبه، لكنه أفادنا بما رواه من روايات، وعلى سبيل المثال فهو يروي الطريقة العملية الذكية التي كانت مصالح الدولة تلجأ إليها في تعيين مَنْ تحتاج إليهم من الأطباء على سبيل المثال:

«... تقدمت للتعيين في وظيفة نائب جراحة بمستشفيات وزارة الأوقاف، وكان المطلوب ٤ نواب ، وعقد للمتقدمين امتحان في ديوان الموظفين حسبما كان متبعا في ذلك الوقت، وتم تعيين الأربعة الأوائل في وظائف نواب الجراحة الشاغرة، وكان ترتيبي في الامتحان ٢٣، وفقدت الأمل في نيابة الجراحة وتقدمت للعمل بوزارة الشؤون الاجتماعية وعينت طبيبا في الوزارة، ومن هناك حاولت التحويل إلى وزارة الأوقاف للعمل نائب جراحة التي كنت قد تقدمت إليها فلم أوفق، وكنت قد نقلت إلى وزارة الشؤون للعمل مفتشا للمراكز الاجتماعية في مدينة قنا، فنفذت النقل ولكنني لم أمكث أكثر من أسبوع حتى تلقيت برقية من والدي بضرورة عودتي للقاهرة لوصول إعلان تعييني نائب جراحة بوزارة الأوقاف، وكان المتبع في ذلك الوقت أن أية جهة في حاجة لأطباء ترسل لديوان الموظفين فيقوم بإرسال مَنْ يحل عليه الدور من الناجحين في امتحان المسابقة السابق، وبالفعل تم تعيين عدد من الأطباء في جهات مختلفة ، وحدث أن استقال اثنان من الأطباء الذين تم تعيينهم نواب جراحة في الأوقاف لانتقالهم للقوات المسلحة فأرسل ديوان الموظفين

مَنْ حل عليه الدور للتعين في المسابقة السابقة».

«وكانت المفاجأة الكبرى بالنسبة لي أنني كنت واحدًا منهم، وبالتالي تم تعييني في الوظيفة التي تمنيتها وحاولت الحصول عليها دون جدوى إلى أن شاء الله فحصلت عليها في الوقت المحدد لي وليس المحدد مني، واستقر في يقيني أن كل شيء مقدر كما جاء في قول الرسول ﷺ : «**ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك ما كان ليصيبك**».

***



كما يروي الدكتور الصاوي حبيب بعض ملامح العقلية البيروقراطية في التعامل مع روح المبادأة التي يتمتع بها الأطباء الشبان بحكم الفطرة التي لم تفسدها تجارب الحياة بعد، وكيف يمكن للبيروقراطية أن تحيل هذه الروح إلى روح حذرة وجلة خائفة:

«في يوم الجمعة ١٣ من سبتمبر ١٩٥٧ نقل إلى المستشفي جندي مصاب في حادث سيارة، وكنت قد فرغت من القيام بعدد من الجراحات غير المعتادة التي كنت أقوم بها بين الحين والآخر، مثل استئصال المرارة بمخدر نصفي، وعمل تصليح فتق إربي برقعة من الجلد».

«وكان واضحا أن الجندي مصاب بنزيف في تجويف البطن، وأقرب الاحتمالات أن يكون بسبب تهتك في الطحال الذي كان متضخما بسبب البلهارسيا التي كانت تصيب أغلب الفلاحين، وبعد إعطائه المحاليل اللازمة لتعويض فقد الدم من الدورة الدموية داخل البطن، قررت إجراء عملية استكشاف على الرغم من عدم وجود طبيب تخدير وطبيب جراح لمساعدتي، وكان البديل الوحيد استمرار النزيف

حتى الموت، وقمت بعمل فتحة الاستكشاف من اليسار قرب الطحال بدلا من اليمين والذي يتعين عمله في حالات الاستكشاف، وذلك على أمل اختصار الوقت والوصول إلى الطحال مباشرة، وبعد أن قمت ببدء تخدير الجندي استمر أحد المرضين في تخديره تحت إشرافي، كان يساعدني في إجراء العملية أحد أكفأ ممرضي العمليات، وقمت بإجراء الجراحة في زمن قياسي واستأصلت الطحال الذي كان متهتكا، ولكن تفريغ البطن من الدم أعقبه انخفاض شديد في الضغط فاستدعيت فريق نقل الدم الذي أنقذ المريض بإعطائه دما من أحد الممرضين داخل حجرة العمليات كان يحمل نفس فصيلة دم المريض، وقمت باستدعاء متطوعين من وحدة الجندي تبرعوا له بدمهم الذي قمنا بنقله إليه حتى اجتاز مرحلة الخطر».

«ولازمت الجندي حتى شفي تماما، وجدير بالذكر أن الضابط الذي كان قد نقل الجندي إلى المستشفى على أساس أنه وجده مصابا في الطريق اعترف لي بعد شفاء المريض بأنه هو الذي صدمه على الطريق أثناء عبوره الطريق دون أن يراه، وكان سعيدًا بنجاة الجندي، وبعد قضاء فترة نقاهة ثم إجازة طويلة عرض على القومسيون الطبي حسب المتبع في هذه الأحوال حيث أعفي من الخدمة العسكرية».

«ولكن الخدمات الطبية كان لها رأي آخر، فلا يجوز لملازم أول إجراء مثل هذه الجراحات، وتم استدعاء قائد المستشفى لسؤاله عن سبب إجراء الجراحة في المستشفى وعدم نقل الجندي للمستشفى الأميري في السويس وتحميله المسؤولية في حالة وفاة المصاب، ورد عليهم بأن جراح المستشفى الأميري حضر وساعدني، وهو ما لم يحدث أصلا، فضلا عن أن نجاة المريض وبقاءه على قيد الحياة كان خير ضمان لبعدي عن المساءلة».

«ولكن قائد المستشفى جمع جميع الأطباء وأعلن أن إنقاذ حياة هذا الجندي

أنقذتني من المساءلة، ولكنه تعرض هو للمساءلة، لذلك أصدر أوامر بعدم إجراء أية عمليات أثناء الإجازات وتحويل الطوارئ والحوادث إلى المستشفي الأميري، وعلى الرغم من ذلك فقد كنت سعيدا بما تم».

***

٢٢

وتحفل المذكرات بكثير من اللقطات الذكية، انظر مثلا إلى فهم جده المسن لمخاطر السلوك المظهري لأعضاء مجلس قيادة الثورة حيث يقول:

«وكان جدي الشيخ محمد حسن حبيب رجلًا حكيماً، ينظر إلى الأمور بعمق وتمعن، وأذكر أنه كان يقرأ الجرائد يوما بعد قيام ثورة ٢٣ من يوليو وكان فيها خبر عن تناول أعضاء مجلس قيادة الثورة سندوتشات فول وطعمية، فعلق قائلا: كنا نريدكم أن تأكلوا لحوما وفراخا لكي يأكل الناس مثلكم، أما إذا بدأتم بالفول والطعمية فلن يجد الناس ما يأكلونه في المستقبل».

***



وقريب من هذا الفكر النافذ نجد ذلك الوصف الممتع الذي يصور الدكتور الصاوي حبيب به حال المصريين البسطاء الذين يحرصون على أداء فريضة الحج بينما ينظر إليهم «البيروقراطيون» من علٍ:

«... ونظرا لأنني طبيب وعضو في بعثة الحج الرسمية فقد كان يتعين عليّ المرور على الحجاج المصريين وتفقد أحوالهم الصحية، ووجدت أكثرهم يعيشون في حجرات في كل منها من سبعة إلى عشرة أفراد، ومنهم مَنْ يطبخ بنفسه بجوار مرتبته الموضوعة فوق الأرض، وبعض الحجرات بدون مروحة، ومعظمها بدون تكييف،

وبعض دورات المياه بعيدة وعددها قليل، وغالبًا يوجد نقص في مياه الشرب والوضوء، ولكنني وجدت في الغالبية العظمى منهم نوعًا من الرضا والقناعة يحمدون الله على أقل القليل، وعندما قارنت بين ما أنا عليه أنا وزوجتي (فلكل منا فراش وتكييف، والماء متوافر، ودورات المياه قريبة) وما هم عليه أحسست بنوع من الخجل، هل يمكن أن يكون جزائي عند الله مثل جزاء هؤلاء البسطاء القانعين بأقل القليل؟ أم أن الجزاء على قدر المشقة؟ ولا أعلم الإجابة حتى الآن».

***



ويثني الدكتور الصاوي حبيب في مذكراته على كثير من الأطباء الذين أتيح له أن يعمل تحت رياستهم وإشرافهم، ويأتي في مقدمة هؤلاء الدكتور محمود صلاح الدين عميد أطباء القلب:

«... ولا يوجد في جيل الخمسينيات مَنْ لم يقرأ مذكرات الدكتور محمود صلاح الدين في أمراض القلب كشرط للنجاح في البكالوريوس، وكانت شخصيته مهيبة، كما كان واسع العلم والمعرفة، وكان قادرًا على الإقناع، وكان يقابل الرئيس كلما قدم الرئيس إلى الإسكندرية، وكان الرئيس عبد الناصر يحبه ويحترم رأيه، ولم يحدث أن قدم الرئيس إلى الإسكندرية دون أن يطلب الدكتور محمود صلاح الدين لمقابلته، وكان يترك له الحرية في القدوم في الوقت الذي يناسبه، وفي أي اجتماع خاص بصحة الرئيس كان هو الذي يرأس الاجتماع ويصادق على العلاج».

***

٢٥

وهو ينفرد بالإشارة إلى أن د. أحمد ثروت طبيب الرئيس أصيب بأزمة شديدة عقب حرب ١٩٦٧م، وأنه امتنع عن الاستمرار في العمل بسبب هذه الأزمة ، ومن الحق أن نشير هنا إلى أن هذه الهزيمة لم تترك مصريا حساسا إلا وقد آذته في بدنه :

«... ولكن الدكتور أحمد ثروت طبيب الرئيس كان بالغ التأثر والحزن، وأصبح غير قادر على الاستمرار في عمله ومعاودة الرئيس يوميًا كما كان يحدث قبل ذلك».

وهو يصف شخصية الدكتور أحمد ثروت وصفا دقيقا:

«... وكان هو الطبيب الخاص للرئيس عبد الناصر، كما كان مسؤولا عن علاج معظم أعضاء مجلس قيادة الثورة، وكان يجيد علاج الحالات الطارئة فكان الطلب عليه كبيرا».

«وكانت علاقته بالرئيس عبد الناصر تتسم بكثير من الود والألفة، فقد كان يمكث معه مددا طويلة في الصباح أكثر مما يستلزم الكشف الطبي، وقد قال لي يوما : في هذه الأماكن إذا فعلت المعجزات فلن يشكرك أحد، ولن يشعر بك أحد، وعليك أن تؤدي الواجب ليلا ونهارا لأنه واجب، وأداء الواجب فرض».

«وبعد حرب يونيو ١٩٦٧م تأثر الدكتور أحمد ثروت بشدة ومرض وأصبحت طبيبًا خاصًا للرئيس، ومع ذلك فقد كان الرئيس حريصًا على أن يقابل الدكتور أحمد ثروت كلما أمكن ذلك، فضلا عن اصطحابه في سفرياته».

***

٢٦

ويجيد الدكتور الصاوي حبيب وصف كثير من أساتذته الأطباء الذين كانوا يترددون على الرئيس عبد الناصر، وهو يبدو متيمًا بالدكتور منصور فايز:

«... كان شديد الذكاء، قوي الملاحظة، وكان يصل إلى التشخيص السليم بسرعة ، كما كان يستغرق وقتا قصيرا في الكشف الطبي حتى إنني سألته يوما : أليس من المناسب أن يستغرق الكشف الطبي على الرئيس مدة أطول من المعتاد؟ فرد عليّ ضاحكا : إني لو أطلت الكشف عن المعتاد فلن أكون منصور فايز، وكان يتميز بالرقي والشهامة، وأذكر أن الرئيس شكا له يوما في عام ١٩٦٨م من أحد زملائه أساتذة باطنة هاجمه في خطاب عام للطلبة بعبارات قاسية، ولكن الدكتور منصور فايز رد على الرئيس قائلا : لقد سمحت للطلبة والجميع بحرية أن يقولوا ما بنفوسهم، وبالتالي فهم يقولون ما يريدون بإذن منك، وكانت النتيجة أن تقبل الرئيس الموقف وتجاوزه».

«وحدث أيضا أن أحد وزراء التعليم العالي أصدر قرارا بضرورة نزول الأساتذة للعيادات الخارجية وأرغمهم على التوقيع في كشوف الحضور والانصراف، وعندها أبلغ الدكتور منصور فايز الرئيس بخطأ هذا القرار وأثره السيئ على أساتذة الطب الكبار الذين يعملون ليل نهار وبنظام بين الأقسام والعيادات الخارجية، وتدخل الرئيس فألغى الوزير القرار، ولم يحدث يوما أن رأيت الدكتور فايز يتلقى أي مقابل عن عمله مع الرئيس أو يستفيد شيئا ماديا أو أن يشير من قريب أو بعيد إلى قربه من الرئيس».

***

٢٧

وهـو حـريص عـلى أن يقـدم مـديحًا في عـدد مـن أسـاتذة كليـة الطـب في جامعـة القاهرة، بينما لا يقدم في المقابل مديحًا في أحد من أساتذة طب عين شمس.

وهو يصف الدكتور على البدري وصفًا جميلًا ويشير إلى أن مرض السكر كان أهم ما يشغله فكره، ويخصص له معظم وقته، ويشير إلى أنه كان واسع الاطلاع، كثير المعرفة، ويشير إلى أن الدكتور البدري سافر إلى العراق موفدا من الرئيس عبد الناصر لعلاج رئيس الجمهورية العراقية في ذلك الوقت الرئيس أحمد حسن البكر.

كما يشير باعتزاز إلى الدكتور ناصح أمين:

«... كان الطبيب المسؤول عن إجراء الأبحاث المعملية للرئيس، وعندما حاول الرئيس إمداده بالعملة الصعبة للحصول على المواد الكيميائية اللازمة للتحليل رفض وأعاد النقود ورفض أن يأخذ أجرا على علاج الرئيس، وكان الرئيس حريصًا على وقته لعلمه بكثرة مشاغله، وكان يقابله في لحظة حضوره».

ويشير إلى أخلاق الدكتور زكي الرملي:

«... وكان هادئاً،وديعاً، ويوحي بالثقة. كان كتومًا قليل الكلام، دقيقا في عمله، يعمل في صمت، ويتصرف بحكمة وروية، وشارك في علاج الرئيس خلال السنة الأخيرة من حياته».

كذلك يشير إلى أن الدكتور الظواهري كانت له منزلة خاصة عند الرئيس، وكان كثيرًا ما يستشيره ويأتنس برأيه ويثق فيه، وكان الوحيد في الأمراض الجلدية الذي يراه الرئيس، سواء في القاهرة أو الإسكندرية، وعندما أراد الرئيس أن يعبر عن تقديره له اختار التقدير الأدبي في عيد العلم، وهو يذكر أن بعض الأخوة العرب

كانوا يتصلون بي من الخارج لمجرد المساعدة في تحديد ميعاد للكشف عنده.

***



٢٨

وعلى نحو ما يقدم هذه اللمحات المثنية على الأطباء المصريين فإن الصاوي حبيب يقدم انطباعات متميزة عن بعض الأطباء الأجانب:

«وسافرت إلى لندن في ٣١ من ديسمبر ١٩٧٣م، وكنا في حالة نشوة وسرور لانتصارنا في حرب أكتوبر ٧٣م، وعندما انتظمت في مستشفي نيوتشارينج كروس وجدت الدكتور بيتر نيكسون يعالج أمراض القلب بطريقة مختلفة، فكان يعطي البعد الاجتماعي والنفسي أهمية قصوى، ومن ذلك أن بعض توصياته كانت تذهب إلى المجلس المحلي في المدينة كطلب تغيير مسكن المريض على سبيل المثال، كما كان يصحب معه في المرور «أخصائي نفسي»، وقد حدث ذات يوم أن لاحظ في ملف إحدي مريضاته ارتفاعا في ضغط الدم بصورة منتظمة، ويحدث ذلك في يومين في الأسبوع، فطلب من الممرضة أن تسجل ما يحدث في هذين اليومين، وفي المرور التالي أخبرته الممرضة أن زوج المريضة يزورها في نفس اليومين وأن ضغطها يرتفع مع الزيارة، في الحال طلب الدكتور نيكسون من الممرضة إرسال خطاب إلى الزوج للحضور لمقابلته».

«وكان الدكتور نيكسون متحفظا في إعطاء الدواء، وكان دائما يقول: إن التوتر يرفع الضغط والسكر والدهنيات وحمض البوليك في الدم، ومثل هذا المريض يحتاج إلى دواء واحد يعالج الحالة النفسية والتوتر بدلا من دواء يعالج الضغط وآخر بخفض السكر وثالث يخفض الدهنيات ورابع يخفض حمض البوليك، أي أنه كان يعالج المريض وليس أعراض المرض».

وعن آخر:

«... ولاحظت وجود بعض نجوم الطب في هذه المستشفي، وعلى سبيل المثال قابلت يوما أحد الأطباء في المصعد، وكان يحمل شارة تحمل اسمه، وكان جورلين، فسألته إن كان هو صاحب معادلة جورلين التي تقيس كمية الدم التي يدفعها القلب في كل انقباض، ولما أجاب بالإيجاب ، وكنت قد لاحظت صغر سنه أخبرته أنني كنت أتوقع أن يكون أكبر من ذلك بكثير، فاعتبر هذه الملاحظة نوعا من التقدير وشكرني».

***



وفي مقابل كل هذه الإشادات بالأطباء ، فإننا لا نرى إشادة مماثلة ببعض العسكريين أو المسؤولين الضباط فيما عدا استثناءات نادرة كما ذكرنا في قصة فرض الحرس على المندوب الذي اشتبه اسمه مع أسماء اليهود، لكننا نجد الدكتور الصاوي حبيب حريصًا على أن ينتقد بطريقة غير مباشرة أداء الفريق أول محمد فوزي ومعاملته القاسية لبعض العاملين في الخدمات الطبية، وهو يقدم قصة تنم عن مدى صعوبة العمل مع مثل هذا الرجل الذي كان رئيس الجمهورية نفسه لا يجد السبيل الأمثل لتصحيح أخطائه المظهرية، على حين ينجح «الجمهور البسيط وإن كان قليل العدد » في تحقيق هذا التصحيح:

«وفي أثناء تواجدنا في باربيخا أجرى الروس للفريق محمد فوزي وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة في ذلك الوقت بعض الأبحاث كان منها صور للأشعة، فأشاد بحرص الممرضات الروس على تنفيذ التعليمات بدقة، وقارن بين أداء الخدمات الطبية في مصر وما حدث في إحدى معارك حرب الاستنزاف في

جزيرة شدوان، فقد وجدت السلطات المصرية على أرض المعركة ما يدل على أن الأطباء الإسرائيليين كانوا يجرون عمليات نقل دم للجرحى على أرض المعركة، وهو ما يعني تواجد الأطباء في خطوط القتال الأمامية. وأخبرني الفريق فوزي أن أول اهتماماته بعد العودة للقاهرة ستكون الخدمات الطبية، إلا أنه ترجم هذا الاهتمام بعد العودة بعقاب بعض الأطباء دون جريرة حقيقية، ولأسباب واهية، كان من أوائل مَنْ شملتهم العقوبة أحد كبار أطباء العظام ممن كان مشهودا لهم بالكفاءة وحسن الخلق، وكنت أعرفه شخصيا، وعملت معه في السويس في فترة العدوان الثلاثي، وكان قد سبق له أن فحص الرئيس نفسه، وكان واضحا أن العقوبة كان المقصود بها أن يكون عبرة لغيره، أو نوعا من الردع، وقد هالني الأمر مما دفعني لذكر ما حدث لأحد نواب الرئيس لينقله له، إلا أنني لم أجد أي صدي أو استجابة، مما دفعني لذكر الأمر للرئيس،ووجدته على علم بالموضوع، لكنه أخبرني أنه إذا تم إلغاء أمر لوزير الحربية بعد صدوره ، فإن هذا غير جائز في المجال العسكري، ويجعل الوزير بلا قيمة، ونصحني بإعادة عرض الموضوع بعد شهر ولكن لم يمض أكثر من أسبوع وألغيت العقوبة ، وعاد الطبيب إلى عمله، وعلمت أن مرضى الطبيب المذكور الذين كانوا تحت العلاج أرسلوا للخدمات الطبية برقيات عديدة تطالب باستمراره في علاجهم، مما دفع الخدمات الطبية لإعادته إلى عمله».

***



ولا تخلو مذكرات الدكتور الصاوي حبيب من بعض الطرائف، فها هو يقدم لنا قصة طريفة عن أحد الفنادق الأمريكية التي لا تسمح بالاختلاط حتى بين الأزواج:

«... عندما وصلت إلى فيلادلفيا وسألت في الجامعة عن مكان إقامة أرشدتني العلاقات العامة إلى أحد الفنادق القريبة، وهناك أخبرني الاستقبال في الفندق عن وجود ثلاثة شروط للنزول في الفندق، أولها عدم التدخين ووجدت هذه فرصة ثمينة للامتناع عن التدخين، والشرط الثاني: ممنوع المشروبات الكحولية وأنا لا أشرب فعلا، والشرط الثالث: ممنوع استقبال زوار في الحجرات ولم أكن أعرف أحدا في هذه المدينة، وبالطبع وافقت على الشروط الثلاثة فكان في نظري أغرب فندق، بالإضافة إلى أن هناك شرطا آخر أكثر غرابة، فقد كانت السيدات في طابق، والرجال في طابق آخر بالتبادل، وكان محظورًا على الرجال والسيدات المتزوجين الإقامة في غرفة واحدة، الرجل عليه الإقامة في دور الرجال والزوجة في دور السيدات، وكان الفندق واحدا من سلسلة فنادق تتبع جمعية دينية كانت هذه شروط الإقامة فيها واسم اللوكاندة ديفين تكساسي».

*****

كتب للمؤلف

كتب للمؤلف

- آراء حرة في التربية و التعليم ، ط١ هيئة الكتاب ٢٠٠١ ، ط٢ مكتبة الأسرة ٢٠٠٥م .
- أحمد زكي : حياته و فكره و أدبه، ط١ ،هيئة الكتاب، سلسلة أعلام العرب ١٩٨٤ م .
- أدباء التنوير و التأريخ الإسلامي ، ط١ ١٩٨٩م ، ط٢ دار الشروق ١٩٩٤ م .
- إسماعيل صدقي باشا ،هيئة الكتاب ، سلسلة تاريخ المصريين ١٩٨٩ م .
- أصحاب المشيختين: سيرة ٥ من العلماء الذين جمعوا بين مشيخة الأزهر و الإفتاء ،مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١٠ م .
- أقوى من السلطة: مذكرات أساتذة الطب ، هيئة الكتاب، القاهرة ٢٠٠٤ م .
- الأمن القومي لمصر :مذكرات قادة المخابرات و المباحث ، ط١ دار الخيال. ١٩٩٩م ، ط٢ دار الخيال ١٩٩٩ م .
- البنيان الوزاري في مصر (١٩٥٢م-١٩٩٦م) ، ط١ دار الشروق ١٩٩٦ م .
- البنيان الوزاري في مصر (١٨٧٨م-٢٠٠٠م)، ط٢ هيئة الكتاب ٢٠٠١م، ط٣ مكتبة الأسرة ٢٠٠٥م.
- التشكيلات الوزارية في عهد الثورة (١٩٥٢م-١٩٨١م) ،الهيئة العامة للإستعلامات، ١٩٨٦ م .
- التنمية الممكنة : أفكار لمصر من أجل الإزدهار، هيئة الكتاب ، ٢٠٠١ م .
- الثورة و الإحباط : مذكرات أساتذة الأدب و الأدباء ، هيئة الكتاب ٢٠٠٤ م.
- الثورة و الحرية :مذكرات المرأة المصرية ، دار الخيال ،٢٠٠٤ م .
- الحكيم الجراح : سيرة حياة د. محمد عبد اللطيف ، ط١ دار الخيال ٢٠٠٩ ،ط٢ دار الخيال ٢٠٠٩م.
- الصحة و الطب و العلاج في مصر، ط١ جامعة الزقازيق ١٩٨٧ ،ط٢ هيئة الكتاب ، ٢٠٠٥ م .
- الطريق إلى النكسة :مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٦٧، ط١ دار الخيال ٢٠٠٠ ،ط٢ دارالخيال ٢٠٠٠ م .
- العمل السري في ثورة ١٩١٩ ..مذكرات الشبان الوفديين ، مكتبة الشروق الدولية ، ٢٠٠٩ م .
- الفلسطينيون ينتصرون أخيرا..دراسات في التنبؤ السياسي ، دار جهاد ٢٠٠٢م.
- القاموس الطبي نوبل، في ٣ أجزاء (بالإشتراك مع أ.د. محمد عبد اللطيف) ،دار الكتاب المصري ١٩٩٨ م .
- القاهرة تبحث عن مستقبلها ، دار المعارف ٢٠٠٠ م .
- المحافظون ، ط١ ، دار الشروق ، ١٩٩٩ م .
- المحافظون ،ط٢ هيئة الكتاب ٢٠٠١ م .
- المسلمون و الأمريكان في عصر جديد ، دار جهاد ٢٠٠٢ م .
- المشير أحمد إسماعيل : من الميلاد إلى النصر ، المجلس القومي للشباب و مجلة الإذاعة والتليفزيون ، ٢٠٠٩ م .
- النخبة المصرية الحاكمة (١٩٥٢م-٢٠٠٠م) ، مكتبة مدبولي ٢٠٠١ م .
- النصر الوحيد: مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٧٣م ، ط١ دار الخيال ٢٠٠٠م ، ط٢ ، دار الخيال ٢٠٠٠م.

• الوزراء و رؤساؤهم و نواب رؤسائهم : تشكيلاتهم وترتيبهم و مسؤولياتهم ، ط١ دار الشروق ١٩٩٦،ط٢ دار الشروق ١٩٩٧م.
• أمراض القلب الخلقية : الثقوب و التحويلات ٢٠٠٢م ، دار المعارف ٢٠٠١م .
• أمراض القلب الخلقية الصمامية ٢٠٠١م ، دار المعارف ٢٠٠١ م .
• أهل الثقة و أهل الخبرة :مذكرات وزراء الثورة ، ط٢ ، هيئة الكتاب ٢٠٠٨ م.
• أوراق القلب.. (رسائل وجدانية) ، ط١، دار الشروق ١٩٩٤ م .
• أوهام الحب : دراسة في عواطف الأنثى ، ط١ :الكتاب الأول في سلسلة كتاب الجمهورية أغسطس ١٩٩٩م، ط٢ ، دار الخيال ٢٠٠٧،ط٣ هيئة الكتاب ٢٠٠٩ م.
• البيليوجرافيا القومية للطب المصري .
ج١ :أمراض و جراحة العظام..الأكاديمية الطبية العسكرية ،١٩٨٩ م .
ج٢ : الجراحة العامة ، الأكاديمية الطبية العسكرية .
ج ٣ : أمراض القلب ....الأكاديمية الطبية العسكرية ، ١٩٩٠ م .
ج٤ : طب الأطفال...الأكاديمية الطبية العسكرية ، ١٩٩٠ م .
ج٥ :العلوم الطبية الأساسية ،الأكاديمية الطبية العسكرية ١٩٩١ م .
ج٦ :الأذن والأنف والحنجرة...الأكاديمية الطبية العسكري .
ج٧ : طب و جراحة العيون...الأكاديمية الطبية العسكرية ، ١٩٩١ م .
ج٨ : الغدد الصماء ...الأكاديمية الطبية العسكرية ، ١٩٩١ م .
ج٩ : الأورام ، مركز الإعلام و النشر و التعريب ١٩٩١ م .
ج١٠ : أمراض النساء و التوليد، مركز الإعلام و النشر و التعريب ١٩٩١ م .
ج١١ : الطب الطبيعي، مركز الإعلام و النشر و التعريب ١٩٩١ م .
ج١٢ :الصحة العامة ، مركز الإعلام و النشر و التعريب ١٩٩١ م .
ج١٣ :الصحة المهنية ، مركز الإعلام و النشر و التعريب ١٩٩١ م .
• بناء الجامعات و الأكاديميات :مذكرات رواد العلوم و الفنون ،هيئة الكتاب ، القاهرة،٢٠٠٦ م .
• تحت الأرض و فوق و الأرض : غربة اليسار المصري ، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١١ م .
• تسعة عشر أستاذا و صديقا ،تراجم ١٩ من أعلام مصر، مكتبة الشروق الدولية،٢٠١٤ م .
• تكوين العقل العربي : مذكرات المفكرين و التربويين ، دار الخيال ،٢٠٠٢ م .
• توفيق الحكيم من العدالة إلى التعادلية ، هيئة الكتاب ، المكتبة الثقافية، ١٩٨٨م.
• ثلاثية التاريخ و الأدب و السياسة :من بين سطور حياتنا الأدبية ،دار جهاد، ٢٠٠٣ م .
• ثلاثية السياسة والصناعة والفن ،مذكرات أساتذة الهندسة.مكتبة الشروق الدولية،٢٠١٣م .

- دليل الخبرات الطبية المصرية و تاريخ التعليم الطبي الحديث ،الجمعية المصرية للأطباء الشبان ١٩٨٧م.
- رحلات شاب مسلم ، ط١ دار الصحوة ١٩٨٧م ، ط٢ دار الشروق ١٩٩٥م ط٣ دار جهاد ٢٠٠٣م.
- زعيم الأمة : مصطفى النحاس باشا و بناء الدولة الليبرالية ، دار الشروق ٢٠١١ م .
- د.سليمان باشا عزمي ، هيئة الكتاب، سلسلة أعلام العرب ١٩٨٦ م .
- سيد مرعي : شريك و شاهد على عصور الليبرالية و الثورة و الإنفتاح ، مكتبة مدبولي ١٩٩٩م .
- سيرة حياة العالم الأديب الدكتور أحمد زكي ، ط٢، هيئة الكتاب، ٢٠٠٣ م .
- سيرة حياة عليّ مصطفى مشرفة ، ط٢، مكتبة مدبولي، ٢٠٠١ م .
- شمس الأصيل في أمريكا ، ط١ دار الشروق ١٩٩٦ ،ط٢ دار جهاد ٢٠٠٣ م .
- صانع النصر :المشير أحمد إسماعيل ،ط١ دار جهاد ٢٠٠٣م ، ط٢ دار جهاد٢٠٠٥م ، ط٣ دار جهاد ٢٠٠٥ م .
- الشيخ الظواهري و الإصلاح الأزهري ، مكتبة الشروق الدولية ، ٢٠٠٨ م .
- عاشق العلم : أحمد مستجير ، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٨ م .
- عبد اللطيف البغدادي... شهيد النزاهة الثورية ،دار الخيال ٢٠٠٦ م .
- الشهيد عبد المنعم رياض: سماء العسكرية المصرية ، دار الأطباء، ١٩٨٤ م .
- عثمان محرم.. مهندس الحقبة الليبرالية المصرية ، مكتبة مدبولي، ٢٠٠٤ م .
- عسكرة الحياة المدنية : مذكرات الضباط في غير الحرب ،هيئة الكتاب ، القاهرة ٢٠٠٤ م .
- عليّ ماهر باشا و نهاية عصر الليبرالية ، دار الشروق ،٢٠٠٩ م .
- د. عليّ باشا إبراهيم ،هيئة الكتاب ، سلسلة أعلام العرب ،١٩٨٥ م .
- د.علي إبراهيم: رائد الطب المصري الحديث ،المجلس القومي للشباب ، القاهرة ٢٠٠٨ م .
- على مشارف الثورة :مذكرات وزراء نهاية عهد الملكية١٩٤٩-١٩٥٢ ،دار الخيال ٢٠٠١ م .
- على هوامش الأدب ،هيئة الكتاب ،٢٠٠٢ م .
- فن كتابة التجربة الذاتية ،مذكرات الهواة و المحترفين ،دار الشروق ١٩٩٧ م .
- في أعقاب النكسة: مذكرات قادة العسكرية المصرية (١٩٦٧-١٩٧٢) ، دار الخيال ٢٠٠١م .
- في حدائق الجامعة : مذكرات خريجي جامعة القاهرة في عقدها الأول ، هيئة الكتاب ٢٠٠٧ م .
- في خدمة السلطة :مذكرات الصحفيين ، دار الخيال ٢٠٠٢ م .
- في رحاب العدالة :مذكرات المحامين ،هيئة الكتاب ٢٠٠٧ م .
- في ضوء القمر : مذكرات قادة العمل السري و الإغتيالات السياسية ، مكتبة الشروق الدولية ٢٠٠٧م.
- في ظلال السياسة.. نجيب محفوظ ، ط١ دار جهاد ٢٠٠٣، ط٢ دار الخيال ٢٠٠٧ ،ط٣ هيئة الكتاب٢٠٠٧ م.
- في كواليس الملكية :مذكرات رجال الحاشية ، ط١ هيئة الكتاب ٢٠٠٦ ،ط٢ هيئة الكتاب ٢٠٠٩ م .
- قادة الشرطة في السياسة المصرية(١٩٥٢-٢٠٠٠)، ط١ مكتبة مدبولي ٢٠٠١، ط٢ هيئة الكتاب ٢٠٠٨ م .

• كلمات القرآن التي لا نستعملها ،ط١ ،دار الأطباء،١٩٨٤ ، ط٢ دار الشروق ١٩٩٧ م .
• كيف أصبحوا عظماء... دراسات و رثاءات ، ط١ دار الخيال ٢٠٠٧ ، ط٢ هيئة الكتاب ٢٠٠٨ م .
• كيف أصبحوا وزراء.. دراسة في صناعة القرار السياسي ،دار الخيال ٢٠٠٢ م.
• مايسترو العبور: المشير أحمد إسماعيل ، دار الأطباء، ١٩٨٤ م .
• مجلة الثقافة (١٩٣٩-١٩٥٢)تعريف و فهرسة و توثيق،هيئة الكتاب ، ١٩٩٣م .
• محاكمة ثورة يوليو : مذكرات رجال القانون و القضاء ، دار الخيال، ١٩٩٩ م .
• محمد طاهر الدباغ:أستاذ الجيل في السعودية ، جدة ، ٢٠١٠م .
• د. محمد كامل حسين عالما و مفكرا و أديبا،ط١ هيئة الكتاب ١٩٧٨م ، ط٢، هيئة الكتاب ٢٠٠٢ م .
• مذكرات الضباط الأحرار ،طبعة مختصرة و مبكرة من كتاب « نحو حكم الفرد» ، دار الشروق ١٩٩٦م.
• مذكرات المرأة المصرية، طبعة مختصرة و مبكرة من كتاب«الثورة و الحرية» ، دار الشروق،١٩٩٥ م .
• مذكرات وزراء الثورة، طبعة مختصرة و مبكرة من كتاب « أهل الثقة و أهل الخبرة » ،دار الشروق ١٩٩٤ م .
• مستقبل الجامعة المصرية، هيئة الكتاب، ١٩٩٩ م .
• مستقبلنا في مصر : دراسات في الإعلام و البيئة و التنمية،ط٢،دار الشروق، ١٩٩٧ م .
• مشرفة بين الذرة و الذروة ، ط١ ، هيئة الكتاب ، ١٩٨٠ م .
• مشرفة : سيرة حياة ، ط٣، دار الشروق، ٢٠١١ م .
• مصريون معاصرون ،ط١ ،هيئة الكتاب ١٩٩٩ ،ط٢ مكتبة الأسرة ٢٠٠٥ م .
• مصطفى مشرفة ، السلسلة الثقافية لطلائع مصر ،المجلس القومي للشباب، القاهرة ٢٠٠٧م .
• من أجل السلام: مذكرات رجال الدبلوماسية المصرية ، دار الخيال ١٩٩٩ م .
• من بين سطور حياتنا الأدبية ، دار الأطباء ١٩٨٤ م .
• نحو حكم الفرد: مذكرات الضباط الأحرار ، دار الخيال، ٢٠٠٣ م .
• د. نجيب محفوظ ، هيئة الكتاب ، سلسلة أعلام العرب ،١٩٨٦ م .
• يرحمهم الله : كلمات في التأبين ، دار الأطباء، ١٩٨٤ م .
• يساريون في عصر اليمين : مذكرات قادة الفكر اليساري المصري ، هيئة الكتاب، ٢٠٠٦ م.
• يوميات علي مصطفى مشرفة (يناير١٩١٨م- يوليو١٩١٨) ، تقديم وتحقيق مكتبة الأسرة ٢٠٠٣ م .

✽✽✽✽✽



المحتويات

المحتويات

*****